
بتول
رواية
علاء أحمد
السراج
SERAJ
ساحر الكتب


ساحر الكتب


بتول





18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ
السـراج للنشـر والتـوزيـع
E ـ mail: seraj.books@gmail.com

بتول

علاء أحمد

رقم الإيداع : /2016
الترقيم الدولي : ـــ 6578 ـ 977 ـ 978

الطبعة الأولى : 2017 م - 1438 هـ

الناشر: © السـراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

تصميم الغلاف:





رواية

علاء أحمد

السراج للنشر والتوزيع





الإهداء

إلى......

«عمر»، الذي شهد مولده مولد «بتول».... الدنيا يا بني دار شقاء فلا تبتئس.

«محمد الطيب»، ذلك النبيل الذي أخذ على عاتقه حمل دعمي حتى تخرج «بتول» إلى النور.

«دار السراج» ملاذ حروفنا، وبالطبع إلى «إسلام أبو الفتوح».

الكادحين.. المهمشين.. المتعبين، أنحت بالقلم ملحمة مطارقكم على الكتل الخرسانية العابسة.





بنعزق في أرضك ولا يوم نكـل

نصيبنا في حصادك ليه يبقـى ذل

بنزرع في شمسك وحرمانا ضل

نجوع بس تشبع كروش العصابه

ليه بس خيرك معادي الغلابــه

....

صنايعيه نصنع فيكي العمــار

نبني في بيوتك ونحلم بـــــدار

تركتنا قوة وعِدة وكـــــــــار

ملناش نوادي ملناش نقابـــــه

ليه بس خيرك معادي الغلابــه

علاء أحمد





(١)

« ووظيفة البعض من بني ضنكنا أن يكون سوطًا فى يد حاكم تُلهب به ظهورنا إذا ما شكونا يومًا ضنك معيشتنا» .



إشليمة.. إيتاي البارود.. البحيرة.

بدأت الشمس في غزل رداء السماء الأبيض، الجو معبأ برائحة الزروع وذرق الطيور وروث البهائم، تصاعدت سيمفونية الصباح العشوائية، صياح الديكة يخالطه زقزقات العصافير، هديل الحمام، يتخلله بطبطة البط المزعجة، الأرض موحلة بالطين أو برك من المياه في رقع أخرى، مخلفات ليلة لم ينقطع فيها المطر الغزير، أودت بشوارع تلك القرية النائية إلى الهلاك، إن لم تكن قبل ذلك بحال أفضل.

تنادوا ثلاثتهم كالعادة في هذا الوقت الباكر من الصباح، ليغدوا إلى وجهتهم المعتادة، «الإسكندرية».

غير مكترثين بحال الجو، كما لم يبالوا بما سمعوا من قبل من أخبار الطقس، وأن اليوم سيشهد انخفاضًا حادًّا في درجة الحرارة مصحوبًا بأمطار غزيرة ونوة لم تشهدها البلاد منذ زمن بعيد، لم يعنِهم كل ذلك ولم يثنِهم عن دربهم اليومي إلا في ملابسهم، فقد تحصنوا لضربات البرد القارس بما تحويه خزائن ملابسهم الرثة بالثقيل منها، بأكثر من ذلك لم يكن لهذا الخبر أي تأثير عليهم كآخرين آثروا السلامة ولسان حالهم:

«لن تقف الدنيا بعدم خروجنا اليوم، لكن صحتنا قد تتأثر».



أما ثلاثتهم فلسان حالهم: «من يأتينا برزقنا إن لم نسعَ إليه».

يخرجون في الصباح الباكر وقت تقسيم الأرزاق لينالهم رزق من الله، يعيشون يومًا بيوم، لا يدخرون ولا يحصنون شيئًا لمستقبل أو ليوم كهذا؛ ذلك أن ما يأتيهم بالكاد يغطي يومهم، وإن زاد فالأفضل يكون ليوم وعكة شديدة تمنع أحدهم من الخروج وليس خوفًا من أن يوعكوا.

غادون في مضمار طريقهم اليومي إلى محطة القطار، في يد كل واحد منهم حقيبة بلاستيكية، بداخلها ملابس الشغل البالية، وإن كان ما يرتدون ليس بأفضل حالًا، ملابس الغرض الأكبر منها ستر العورة والحماية من البرد، مهمل في قاموسهم عن اضطرار عامل الإناقة واللياقة؛ ذلك أن خياراتهم محدودة فيما يرتدون من بين الملابس الأقل تمزقًا، أما الطقم الأفضل على الإطلاق ـ إن وُجد ـ فهو مدخر للأفراح والمناسبات الكبيرة.

«عادل» في العقد الثالث من عمره، والعام الأول من زواجه، لا يحمل شهادات علمية سوى دبلوم صنايع ثلاث سنوات، إلا أن الله آتاه الكثير من الفهم والحكمة والفتح الرباني ما لم يدركه الكثير من أصحاب الشهادات العليا، سليم النفس، طيب الخلقة والخلق، لين الطباع، سهل المعاملة.

صاحب بنيان سليم قويم، هو كل تركته ورأس ماله في الدنيا، ويد مفلطحة واعر سطحها خشن، لم يُجدِ معها محاولات الترطيب الليلية بزيت الطعام حتى تلين قليلًا، منتفخة أصابعه عند الأظافر من أثر قبضته على ساق المطرقة، ذو وجه صبوح طويل كخضراوات وزروع قريتهم البسيطة، أبيض بحمرة من لفحات الشمس على سطح وجهه.



ذو هندام محافظ، فلا يخرج أبدًا قميصه من قبضة البنطال، وهو من الجينز الثقيل، ذو كسرتين على جوانبه، دائمًا مقفل للأساور، ولولا ملامة أهل الإسكندرية ونعته «بالفلاح» ـ وكأنها سُبة ـ لأغلق على رقبته ياقة قميصه.

خرج ذلك اليوم بأنقاض من القطع يرتديها؛ اتقاء تلك الموجة الباردة، فوق كل ذلك معطفه الثقيل المقشر سطحه الجلدى في أغلب أجزائه، وحذاء منبعج الهيئة قد انبسط نعله من تكرار ارتدائه وكثرة إصلاحه، شديدة العتمة لا لمعة فيه، قد مر عليه بكهنة مبللة قبل خروجه من المنزل لإزالة تجيّر مواد البناء التي لطالما توحل فيها.

....

ما زال «عم صابر» صابرًا على زي الأولين، الزي الريفي الأصيل كصبره على مهنة البأس، رغم كبر سنه وقد تجاوز عقده الخامس ببضعة أشهر، أقرانه في هذا الوقت من العمر من موظفي الدولة، لا يذهبون للعمل إلا قليلًا، يستعدون لإخلاء طرفهم ويستريحون في آخر مدة خدمتهم وقد كان أغلبها راحة، مطمئنين على راتبهم آخر الشهر والمعاش من بعده، وإن كان أقل من الراتب، وهو ما يحدث لديهم فجوة، لكنه أهون من أولئك الذين لو مرضوا يومًا لن يجدوا ما يشترون به علاجهم، فضلًا عن قوتهم.

لم يعد جسد «عم صابر» يستطيع الصبر على العناء أكثر من ذلك، وإن بدا الرجل صامدًا، لكنه التعفف أن يكون في بيته مادًّا يده ينتظر العون، لم يعد قادرًا على مصارعة الخرسانة وحمل الأثقال، قد ارتخت بعض أعصابه ولم تعد قبضته محكمة على ساق المطرقة كما كانت، لكن ليس له إلا ذلك



وكاره لا يعرف راحة ما قبل الخروج على المعاش، فضلًا عن أنه لا معاش له من الأساس.

خرج ذلك اليوم بصحبة رفيقيه مرتديًا قبعته الفلاحي الطويلة، وجلبابه البني الوبري الثقل والذي يعتلي الكثير من القطع الصوفية بالية الأكمام، لكنها تفي الغرض، كالجوارب الممزقة، وجهتها حذاء يبدو مقبولًا، وحذاء بلاستيكي تمتلئ فراغات إسطمبته بحبات الرمال والأسمنت، ذو وجه نحاسي اللون قد طهي على أشعة الشمس طوال فترات كدِّه الطويلة، وجبهة عريضة قد حفرت أظافر الزمن خطوطها عليها، ذابل الخدين، يبرز منهما عظمتا وجهه، منتفخة عروقه دائمًا متحفزة، مائلًا فرعه من أعلى في طريقه إلى الأرض التي نبت منها.

أوسطهم «زكريا» يتوسطهم دائمًا في سيرهم، وهو أوسطهم أيضًا في العمر، في منتصف العقد الثالث، قد أتم عامه الثاني من زواجه، يشبه إلى حد كبير أخاه «عادل» حتى في هندامه، لكن «زكريا» له بعض الملامح المميزة؛ حيث اشتعال بعض خصلات شعره الأمامية بالشيب رغم صغر سنه، قصير القامة، مضغوط الجسد، عريض المنكبين، ذو جسد رياضي تم بناؤه فقط في رياضات الهدم وحمل الردم وأنقاض التكسير، صاحب النصيب الأكبر من المجهود والقوة والأكثر إنجازًا في العمل.

وجهتهم الأولى التي يركبون منها إلى الإسكندرية هي محطة المركز «إيتاي البارود» والتي يصلون إليها عن طريق سيارات الأجرة ذات الصندوق والتي تشبه عربات «البوكس» لدى الداخلية، يستقلونها من الشارع العام والذي يبعد عن سكناهم قرابة الخمس دقائق سيرًا على الأقدام.



«إيتاي البارود»...

الكل شاخص بصره تجاه اليمين يترقبون وصوله بعرباته المهترئة ومقاعده المهشمة، ووجهه العبوس، لم تفلح معه محاولات تزيينه بنقش علم مصر على مقدمته، تأخر عن موعده ثلاثين دقيقة، وما عليهم سوى الانتظار، أما وإن تأخروا عليه دقيقة فلا ينتظرهم.

جاء أخيرًا.. مر برأسه أولًا على كل المنتظرين حتى يدخل بجميع عرباته إلى أرض الانتظار، ما إن دخل حتى فاحت رائحة حماماته كل المكان. فكيف بمن في داخله؟!

تتغير الأوقات، الحكومات، المحطات، وهو هو، قطار العسس أو القشاش، لا يتغير، كلها مسميات لذلك الكائن مأخوذة من طبيعته السيئة.

صعد ثلاثتهم القطار متجهين إلى الإسكندرية في رحلتهم اليومية بحثًا عن لقمة العيش.

بداخل القطار تتعدد الوجوه، فتتعدد المقاصد، لكنهم يجتمعون على قلة ذات اليد وضعف الحال، وإلا ما كان القشاش ركوبهم.

فيه الريفية التي صعدت بمعين الجبن القريش لتبيعه في أسواق الإسكندرية، وعمال الفاعل والمعمار، والموظفين، والطلبة.

صعدوا إليه من محطاته المختلفة الكثيرة التي يقشها أمامه، وغير المحطات، فأحيانًا يقف فجأة ويقلع قبل موعده دون سبب.

ويبقى السواد الأعظم من العسس «المخبرين» تعرفهم بسيماهم، فحول الأجساد كأنهم خشب مسندة، ينتظرون الشتاء ليرتدوا معاطفهم



الثقيلة السوداء، أو الزرقاء، دائمًا قمصانهم بداخل البناطيل، أحذيتهم ضخمة سوداء، أحزمة خصورهم ذات التوكة النحاسية الكبيرة، والأهم من ذلك كله لتعرفهم، هي نظراتهم الاستكشافية، تلك الطبيعة التي تلبَّستهم من عملهم، فلا يستطيعون تركها خارج أماكن العمل، ينظرون إلى الجميع نظرة إدانة وفحص إلى أن يظهر العكس، الجميع في ذلك القطار يعرفهم ويتحاشاهم.

وإن كانوا ليسوا بأفضل حال من بسطاء القطار الذين يخشونهم، لكنهم السياط الذي يستخدمه كل نظام ليجلدوا به ظهور من هم أمثالهم معيشة وضنكًا، يتخيلون بذلك أنهم يقدمون واجبًا وطنيًّا وجب شكرهم عليه.

للمهم القطار من المراكز الريفية المختلفة للذهاب إلى الإسكندرية؛ حيث إنه لا يصلح أحد من شباب الإسكندرية لهذا العمل، كما يرددون ذلك دائمًا.

وإنهم أتوا ليقوموهم. ذلك المبدأ الخاطئ مع نظرة بعض شباب الإسكندرية لهم بعنصرية وأنهم فلاحون؛ جعل دائمًا الأمور بينهم شديدة العداوة، وربما كان ذلك مقصودًا لذاته ومن فلسفات الحكم في بلادنا!



(٢)

«يجتمع على أرصفتها، لهفة اللقاء ودموع الوداع، وحلم المسافر بلقاء الأحبة»





محطة مصر.. الإسكندرية.

وصل القطار أخيرًا إلى منتهى رحلته «محطة مصر» الإسكندرية. تلك المحطة العملاقة الأصيلة من كلاسيكيات هذه المدينة العريقة، تحمل اللمسات الأنيقة للمهندس الإيطالي «أنطونيو لاشيك» التي شيدها قبل مائة عام، والتي تحولت بعد إلى جمهورية الباعة الجائلين، يجتمع على أرصفتها، لهفة اللقاء ودموع الوداع، وحلم المسافر بلقاء الأحبة، تختلط فيها رائحة أمتعة المسافرين برائحة عوادم القطارات وزيوتها المستهلكة، مع صوت إذاعتها الداخلية يقاطعه صوت تنبيهات القطارات الواردة إليها.

ما إن تخرج منها حتى تجد نفسك في قلب الإسكندرية النابض، ومحط الراحلين وقبلة المتوجهين، أول ما يلفت انتباهك «تاكسي» الإسكندرية بألوانه المميزة بماركة سيارات «لادا» الروسية المحببة إلى أهل الإسكندرية، بشكلها الجامد ووقارها الذي لا يكسره أية انسيابة في تصميمها.

وثاني ما لن تخطئه عيناك، ذلك القفص الحديدي الكبير الذي يحوي بداخله مئات المحركات النابضة داخل سيارات الأجرة، فيما يسمى «بالموقف»، منه يتم ضخ سيارات الأجرة إلى جميع أوصال الإسكندرية وأحيائها، يكون بين هذا الموقف وسوق المحطة الطويل، سياج من



قضبـان ترام المدينة، بلونه الأصفر الفاقع الذي لا يسر الناظرين بملامح وجهه غير المرتبة، يستقله مجموعة من كبار السن وغير العابئين بأوقاتهم، والمحملـين بأشـياء يأبى سـائقو «الميكروبـاص» أن يركبوا بهـا، فيكون توجههم إلى الترام الذي لا يخذل أحدًا.

أصوات البائعين متداخلة ومتشابكة، تكاد لا تفقه نداءاتهم، خاصة بعدما أصبحت إلكترونية! نعم إلكترونية، فعلى كل باكية وفرش معلق ميكروفون «صيني»، مسجل على ذاكرته صوت البائع بجملة واحدة تعاد بشكل متتالٍ مستفز يجعلك تنوي ألا تبتاع منه.

لن تغفل عيناك هنا مشهد أولئك الجالسين على الكراسي الخشبية العالية، ومن أسفلهم على كراسي قريبة من الأرض أناس بائسون منكبون على أحذيتهم يفرشونها مقابل ثلاثة جنيهات.

تبًّا لتلك الثلاثة التي تجعل أعناق الرجال تنحني لأحذية! لكنك حتمًا أو ربما تكون مثلي وتسر من ذلك الرجل الذي يقف بجوربيه على قطعة كرتون ينتظر «حذاءه» حتى ينتهي العامل من تفريشه، يأبى أن يجلس على كرسي العرش الحذائي!

«تيك أواي الصعايدة»....

ربما لا تتسق «تيك أواي» مع «الصعايدة»، أو حتى مع رواد المطعم، لكنه التقليد الأعمى والعرف الذي ظنه بعض ملاك تلك المطاعم شرطًا كي يزاولوا نشاطهم.

كان وجهتهم الأولى بعد خروجهم من المحطة، بل هو أيضًا وجهة معظم ركاب القطار؛ ذلك أن غالب ركابه من العمال والفواعلية والمخبرين، فهو



الأرخص ثمنًا بين أمثاله، ووجباته التي تلكم وتتخم الأمعاء والبطون، فلا شعور بالجوع إلى باقي اليوم أو أبعد وقت ممكن.

وقفوا بجوار جمهور المطعم العريض على الرخامة الممتدة بمحيط المطعم من الخارج، متراصة عليها أطباق الفول الحار وأرغفة الخبز البلدي، لينقضوا جميعًا عليها فلا حديث، الكل ينظر موضع طبقه، لا يعنيه من بجواره، والأقدام منصوبة، والكتف في الكتف وكأنه سباق في الأكل.

ما إن انتهوا من عملية ملء البطون السريعة حتى توجهوا إلى رصيف الفواعلية لينضموا إلى من سبقهم، على نفس هيئتهم، يجلسون على الرصيف، من خلفهم الترام، ومن أمامهم عدتهم، كل منهم ناصب سلاحه أمامه «المطرقة والأزميل»، ترمقهم أعين الباحثين عن أمثالهم والمارة من المستطلعين الذين قد تأخذهم بعض الشفقة الوقتية عليهم.





(٣)

«تحول هدفه في الحياة، إلى غصة الحياة في حلقه»





عاد «عم صابر» من رحلة الشقاء اليومية مع صاحبيه وقد استنزفت كل قواه، مقابل اليومية التى أنفق أكثر من نصفها قبل عمله، أو قبل أن تقع في يديه من ديون سابقة عليه.

عاد من شقاء الجوارح والبدن إلى شقاء الفكر وهم البيت، هو أكبر صاحبيه، أو «البركة» كما يحب أن يلقبه عادل، مستشارهم عند قبولهم لأي شغل من هدم أو رفع مخلفات، وهو الذي يبرم الاتفاق مع العميل، لا يشقون عليه في العمل، أحيانًا يقومون بما وُكِّل إليه وإن كان يسيرًا بعد انتهائهم مما عليهم فعله.

هو الأثر الطيب من جيل أصيل في مهنة الشقاء، فهو صديق والد الأخوين «عادل وزكريا»، قد أخذ على عاتقه استيعاب شباب تلك القرية البسيطة ممن لا يجدون عملًا أو تضيق بهم الدنيا، قد مر عليه الكثير من الشباب كمرحلة انتقالية قبل ذهابهم إلى الخارج، أو منت عليهم الدولة بالميري، لكنه لم يستمر معه في المرحلة الأخيرة سوى عادل وزكريا، فقد أصبح الشباب ينفر من ذلك العمل الوعر إلى الوظائف الحديثة التي بدأت تستقطبهم إلى القرى والكافيهات والمنتجعات السياحية.

أما هو، فقد ظل أسيرًا للمشقة؛ حيث لا شيء سواها يجيده، ولا معاش ولا إعانة من ابن ولا قطعة أرض يأكل من خيرها تكفيه قوته،



كما هو الحال مع أصحابه القدامى الذين تقاعدوا عن هذا العمل الوعر قبل أن يتجاوزوا سنه.

عائل لبيت به سبعة أبناء وزوجة، خمس بنات وولدان. ظل ينجب حتى أتي بهما، فجاءا على كبر سنه، فتحولا من هدف في حياته إلى غصة الحياة في حلقه!

هو من يأتيه الشباب للنزول معه والعمل بالإسكندرية، وولداه يرفضان ذلك ولا يعمران في عمل، من بعد تخرج الكبير وحصوله على الدبلوم، وتسرب الأصغر منه من التعليم بعد فشله في الإعدادية.

يقلبان كل يوم عيشهما في أي عمل للحصول فقط على ثمن علبة سجائر وبعض الجنيهات التي تكون في حوزتهما ليوم أو يومين، غير آبهيْن لمستقبلهما أو والدهما، المسن الذي لم يعد قادرًا على العناء.



(٤)

«أحيانًا نتمنى أشياء بشدة، ليس لاحتياجنا العاجل لها، لكن لأنها من المفترض أن تكون لدينا كما هي لدى الناس»





ما زلت رائحة الأثاث الجديدة، وأقمشة الستائر والملاءات وطلاء الحوائط تزكم الأنوف، في مسكنهم المتواضع، رغم مرور عامين على زواج «زكريا، وأمل»، وذلك لصغر حجم مساحته التي لا تتجاوز خمسة وستين مترًا، وقلة النوافذ التي تتسرب منها النسمات إلى الداخل؛ فتعتقت رائحة الأشياء به، أشياء أتيا بها على صغر مساحة بيتهما حتى يكونا بمظهر لائق في أعين الناس ويكونا كغيرهم، هذا الغير الذي ربما يمتلك سكنًا أكبر أو مقدرة مالية أكبر، لكن ذلك لا يكون في الحسبان؛ حيث إن فِراشة البيت في الزواج صارت شيئًا من التباهي والمنافسة، خاصة يوم خروج «العفش». وللعجب يكون ذلك أكثر في أواسط البسطاء، فمن أجل أعين الناس قد يتكفلون ما لا يطيقون، بل ما لا يستوعب منزلهم البسيط!

انقضى عامان على زواجهما سريعًا، وانقضى معهما أمور غالبًا ما تلازمهما، من استقرار وسعادة وتفاهم، بدأ يتقلص شعورهما بالفرحة واكتفاؤهما ببعض عن الدنيا ببدء ظهور شيء ما ينقصهما ويفتقدانه أنهما لم ينجبا حتى ذلك الوقت، تصاعد ذلك الشعور لديهما من الترقب الشديد للأهل وكثرة الأسئلة الفضولية من المعارف، والإمعان المتكلف بالدعاء لهما بالذرية عند كل تجمع أو مناسبة، فأصبحت عيادات النساء والذكورة مزاراتهما الدائمة،



وإن كانت تلك الزيارات قد بدأت من قبل، لكنها ازدادت بالطبع بعد دخولهما عامهما الثاني.

كل تلك الزيارات والتعدد في العيادات لم تأتِ بجديد، وأن الحمل ما زال مسألة وقت حيث سلامة الزوجين، هكذا أكد أغلب الأطباء.

لكن من أين سيأتي ذلك الصبر حتى يحين الوقت المزعوم والكل من حولهم محيط؟! فأصبح الإنجاب ليس مطلوبًا لذاته، وإنما لرفع الضغط والعبء النفسي الواقع عليهما من تأخره.

وكأن الأمر تحدٍّ وليس رزقًا مقدرًا، وأن الذي أنجب كان بعلمه أو مهارته، والذي لم يقدر له موصوم بنقيصة أو ضعف!

«أحيانًا نتمنى أشياء بشدة، ليس لاحتياجنا العاجل لها، لكن لأنها من المفترض أن تكون لدينا كما هي لدى الناس».

حتى حياتهما الحميمية الخاصة، تأثرت بهذا كما تأثرت حياتهما عمومًا، فكُرست فقط لذلك الهدف، فأصبحت النتيجة التي تنتج من الحب والحميمية هي الغاية التي تُكرس لها كل شيء.

فأصبح لقاؤهما يُرتب بمواعيد دقيقية وجدول عليهما الالتزام به، معد من قبل الطبيب حتى لا يضيع عليهما اليوم المبارك «يوم التبويض» من كل شهر أكثر يوم تكون فيه البويضة مهيأة للتلقيح، وقد كانت تلك العلاقة من قبل لا تخضع لأى شيء سوى رغبتهما واحتياجهما الشديد كل منهما للآخر.

ففي يومهما الموعود، تظل «أمل» طيلة نهارها تتهيأ وتهيئ كل ما من شأنه تيسير اليوم، وهو ما لم تعتد عليه من قبل، ولم تتكلف أو تتصنع له



يومًا؛ ذلك ما زادها خجلًا؛ ليتحول الأمر إلى ميكانيكية يراد لها أن تتم.

«زكريا» يكون ذلك اليوم قلقًا، يخشى ألا تسعفه رغبته فى إتمام المهمة فتفوت فرصتهما التي لا تأتي سوى كل شهر.

«شتان بين هذا وذاك الذي كان يحدث سلفًا. كانت تأتي علاقتهما بعد وقت من اشتياق ولهفة؛ فتحدث بغتة تتوج هذا الشعور. فما أشد أن يُحسب لأمر متعته في عشوائيته وتلقائيته، أو يتفق على أمر جماله في بغتته!».





(٥)

«لا أريدها بمائة رجل، أنا أطمع في أكثر من ذلك، أن تكون امرأة واحدة»





جاء الشهر الخامس، بدأت «حياة» تشعر بحركات جنينها في داخلها كما أخبرها الطبيب من علامات هذا الشهر من الحمل.

ما أجملها من لحظات، أن تشعر الأم بنبض جنينها وركلاته بداخلها، ذلك الجنين الذي تكوَّن منها وفيها، قد أخذ من قوتها وأصبح قادرًا على الركل، تلك الركلات كان لها بالغ الأثر الطيب على «حياة»! كانت تنتظر بلهفة عودة زوجها من عمله لتنبئه بها، خاصة وأنه من دواعي سروره أن يتحدث عن مولودته القادمة. وما أجمل السرور عندما يأتي بعد يوم شاق!

ما إن دخل عليها إلا واستقبلته بإشراقة محياها أضاءت بها قتامة يوم، وبلمسة من يديها اللينتين على يديه اليابستين المنهكتين ذهب عنهما رهق اليوم.

لِمَ لا وهذا البيت البسيط هو جنته الواسعة؟ فيه يجد راحته، ويتسرب عن جسده نصبه ما إن يحل بقدميه إليه، فلا يخرج من بيته بعد مجيئه من عمله إلا نادرًا، قد هجر المقهى الذي كان يلوذ إليه بعد عمله مع أصدقائه قبل زواجه، قد وجد كل ما يرنو إليه متجمعًا في بيته من زوجة حسناء رقيقة، وراحة بال بحلال أُنهك الجسد للوصول إليه، ففي بيته البسيط تكثر ضحكاته وكأنه حيزت له الدنيا بحذافيرها رغم بساطة معيشته،



لكنه يستمتع بذلك البسيط ولم يعلق سعادته بمنتظر أو شيء يرتجى.

تسعدهما تفاصيل صغيره جدًّا، مشهد في مسرحية قديمة كفيل بأن يعلي ضحكاتهما ويظهر نواجذهما، قد يكتفيان بما يضعانه من سكر في الشاي حتى يكون حلوهما بعد وجبة غداء أو عشاء متواضعة، سقف رضائهما يقف عند حد الستر وألا يحتاجا إلى أحد.

كعادتهما قبل نومهما يكون هذا الوقت لحديثهما الفضفاض، يتحدث «عادل» عما كان في يوم عمله، وتحدثه «حياة» عن البيت وما تود أن تبوح له به.

انتهزت هذا الوقت الروحي بينهما، فنبأته أن عزيزته القادمة قد بدأت بالركل؛ وهو ما أضفى على وجهه سعادة بسطت كل أساريره، ثم أردفت إليه قائلة:

ـ لم تختر لها اسمًا بعد من مجموعة الأسماء التى قد اخترناها للإناث..

ـ هي «البتول» إن شاء الله.

ردت متفاجئة:

ـ «بتول»؟!! لم تكن ضمن الاختيارات، لم تخبرني بذلك الاسم من قبل!

ـ نعم اسم يراودني منذ أيام ويتملكني، ولطالما قلتُ لكِ أن اسمها سيأتينا فجأة وإن تفكرنا فيه كثيرًا.

بتول.. بتول تتذوقه بين شفتيها..ثم أردفت:

ـ اسم رقيق ذو معنى رائع وغير متداول كثيرًا، أنا معك فيه.



ـ الحمد لله، كنت أخشى أن لن تستسيغيه.

ـ هذا عن الاسم، هناك شيء آخر أود معرفته بشدة.

ـ أي شيء..؟

ـ كنت أظن أن تمنيك لفتاة هو من باب التورية عن أمنيتك الحقيقية بالولد كباقي الرجال، وكعادتك في إخفاء رغبتك حتى لا يُفهم أنه عدم رضاء منك، لكنني وجدت الأمر حقيقيًّا عندما أخبرنا الطبيب في الشهر الماضي أنها أنثى، فبدت عيناك تلمع من الفرحة الصادقة ووجهك مستبشر، وهذا عكس حال أغلب الرجال.

ـ بالفعل تعجبك في محله، ودائمًا لا أتحدث عن رغبتي هذه بين أصدقائي، فلن يتفهموها، خاصة وأنهم أصحاب بأس وشقاء، الذرية ذكر أو أنثى رزق من الله، لكنني بالفعل كنت أتمناها فتاة، الفتاة من يظهر عليها تربية أبويها، والأرض الخصبة لأرى فيها ما تمنيت أن أحققه لنفسي، كما أنني أؤمن أن الفتيات هن مصابيح البيوت وزينتها، ويُرزق الرجال من أجلهن، ويبقى سبب أكبر، أنني أحبك وأتمناها مثلكِ.

علا وجهها ابتسامة عفوية من ذلك السبب الأخير الذي لم تتوقعه، ثم أردفت..

ـ أليس الولد سندًا لوالده عن الفتاة؟

كان رده:

ـ حياتنا كلها صلبة، المطرقة التي نحملها والحوائط التي ننقبها، نحتاج أكثر إلى البلسم، حتى ذلك السند نحتاجه وسادة لينة لا حائط صلبًا.



ـ لكن الله قال ليس الذكر كالأنثى.

بدعابة:

ـ نعم.. من الممكن أن تكون الفتاة أفضل، الله قال ليس هذا مثل ذاك، ولم يفضل أحدًا على آخر.

ثم أردف قائلًا:

ـ بالفعل هناك اختلاف تنوع، وليس تفضيلًا بين كائن وكائن.

ـ ستكون لك بمائة رجل إن شاء الله.

ـ لا أريدها بمائة رجل، أنا أطمع في أكثر من ذلك، أن تكون امرأة واحدة.



(٦)

«عندما يلوح الهدف في الأفق، يهون التعب في الوصول إليه، وعندما نتلمس بأيدينا غايتنا، يذهب عنها نصبُها في سبيله»





قبيل إتمام الشهر التاسع، وفي ساعة متأخرة من الليل كسر سكونها تأوه «حياة» من جراء ما أصاب جسدها من طلقات الاحتفاء بخروج «بتول» إلى حياة المواجهة، بعدما كان يأتيها رزقها رغدًا دون عناء منها أو شقاء، ولا يخشى عليها من مرض أو حاجة، سيكون عليها مسئولية، وإن كانت فقط مجرد البكاء، هو وسيلتها الوحيدة للتعبير عما تريده أو يعتريها.

فزع «عادل» من نومه على وقع طرق صراخ «حياة» وهي التي كانت منذ قليل تمتص وتكتم بداخلها الألم؛ خوفًا من أن تقطع على زوجها المنهك غفوته، فهو ينتظره بأس شديد في الصباح، لكن الأمر لم يمر كسابقه من الألم الذي اعتادت عليه في الآونة الأخيرة، كان يأتيها للحظات ثم يمضي، أما هذا، فتنامى وتصاعد بشكل يصعب عليها تحمله!

إنه طلق الولادة.. هذا أول ما بدر إلى ذهنها في هذه اللحظات العصيبة، كما أخبرت به من النساء من قبل، إنه ألم ليس كمثله ألم، إن أتى إليكِ ستعرفينه ولن تخطئيه.

وهذا ما تيقن منه «عادل» أيضًا عندما رآها تتلوى أمامه وتصرخ من شدة الوجع، وهي ذات جلد لا يضعفها إلا شديد قوي لا طاقة لها به.



في هذه اللحظات تخبط «عادل»، لا يدري ماذا يفعل! مترنح بين تهدئتها وبين لملمة ثيابه حتى يخرج ليبحث عن سيارة تقله إلى مستشفى، أو يصعد إلى أخيه يساعده في الأمر، لا سيما وأن «حياة» مبتورة، لا أوصال لها سوى في القبور، يتيمة الأبوين ولا إخوة لها وما لها من عائلة الأب أو الأم في قرية «الضهرية» المجاورة لقريتهم، مركز «إيتاي» في محافظة البحيرة.

لكن شتاته قد تجمَّع عندما أشارت له «حياة» إلى أسفل منها، فوجد خريرًا من الماء ينساب، وشيئًا ما يبرز من بين فخذيها، هنالك علم أن الأمر يحدث الآن أو قد حدث، وكأن «بتول» قد عقدت عزمًا أن تفاجئ أمها، فلم تمهلها أو تُنظرها بكثير طلق أو إرهاصات للولادة؛ مما زاده اضطرابًا وقلقًا، فانكب على جبهة زوجته يقبلها وهو يضم كلتا يديها بين يديه حتى يتسرب شيء من ألمها وذعرها إلى جسده، أو يُهدئ من روعها، لم يمتد الأمر لأكثر من دقائق معدودة حتى بدأت تخور قوى «حياة» وترتخي أطرافها، وتباطأ معدل شهيقها وزفيرها، حتى استأذنها «عادل» أن يصعد إلى أخيه وزوجته ليساعداه، وهو يمنع نفسه أن ينظر إلى موضع بين فخذيها مرة أخرى؛ خوفًا من أن يرى ما لا يسره في حبيبته القادمة.

على الفور نزل معه أخوه وزوجته التي ذهبت بدورها إلى حجرة «حياة».

ما زالت تتوجع، لكن بأقل حدة من ذي قبل، ما إن نظرت «أمل» إلى ما بين فخذي «حياة» حتى رأت رأس «بتول» تطل إلى الدنيا بجزء يسير جدًّا، وعلى الفور وبجرأة تُحسد عليها، ربما أخذتها من أمها التي كانت «داية» تولد نساء القرية في بيوتهن.

أخذت تسحب الباقي من «بتول» وهي تطمئن «حياة» أن الأمر قد انتهى بخروج الرأس، وأن ولادتها يسيرة جدًّا، وعلى الرغم من أنها لم تكن على دراية كبيرة بهذا الأمر، بل لم تفعله وحدها من قبل، إلا أنها كانت تتصرف بثبات. ولِمَ لا؟! فما أكثر حكايات النساء في تلك القرى البسيطة عن مثل هذه المواقف في الولادة والنوادر التي تدور بينهن، عن تلك التي نزل جنينها وهي تستحم، والأخرى التي التقطت جنينها بيدها! فما بين بضعة بيوت إلا وتجد بيت «داية» متمرسة، وما من بيت إلا وولدت إحدى نسائه في البيت!

ما إن قطعت الحبل السري، وأحكمت ربط طرفيه، وقف عن «بتول» خط الإمداد الإلهي وخرج منها أو تفاعل مع الحياة بالبكاء، تفاعلت معه «أمل» بأعيرة الزغاريد المدوية، بكاء رسم بسمة عريضة على الأم المثخنة من الألم، فعندما يلوح الهدف في الأفق، يهون التعب في الوصول إليه، وعندما نتلمس بأيدينا غايتنا، يذهب عنها نصبها في سبيله.

ما إن طاف لحن صوت بكائها على أذن أبيها المتلهف له، حتى انطلق إلى حجرة شروق الشمس ليطالعها، وبنظرة واحدة إليها، كأنما لم يرَ شرًّا قط في حياته، ولا تعبًا ولا نصبًا، وكأنها جنة فتحت عيناه عليها من سبات عميق، حملها على راحتي يده، فتسرب عنهما الكَلَل، وكأن الدنيا قد حيزت له بين يديه، ولِمَ لا؟! فوجهها ملائكي، ذات ملامح دقيقة، منحوتة بإبداع الخالق، بيضاء وكأنها لبن مصفى لا عكارة فيه، يكاد داخلها يظهر من فرط بياضها ورقة جلدها، شعرها كثيف أسود، كقطعة ليل مظلمة، يتوسط خديها نغزتان، يراها الناظر إليها دائمًا مبتسمة، باعثة للأمل من طيب محياها وخلقتها، هي الجمال في صورة مواده الخام...



أيام تلت بعد ذلك لم تكن كسابقتها، فصوت بكائها ليلًا أصبح الروح التي دبت في بيتهما المتواضع، ربما سلبهما بعض ساعات النوم، بالأخص للأب الذي يجد راحة بدنه في تلك الساعات، لكن ما أرخصها من تضحية في سبيل ألا يسكت حس لصغيرته الجميلة! فنظرة واحدة إليها بعد عودته من يوم عمل شاق لهي راحة تفوق ساعات النوم التي أصبحت مفتقدة..



(٧)

«ما زال السيل الأحمر يعصف بأحلامها كل شهر،
يأبى أن تقر أعينها برؤية الخط الوردي لاختبار الحمل»





رغم مرور خمس سنوات....

ما زال السيل الأحمر يعصف بأحلامهما، كل شهر يأبى أن تقر أعينهما برؤية الخط الوردي لاختبار الحمل.

دب اليأس في نفسيهما، لا سيما لاتخاذهما كل الوسائل والأخذ بالأسباب من تنشيط للتبويض لأشهر عديدة، إلى عملية المنظار البطني والرحمي، مرورًا بالحدث الأكبر والأهم الذي استنفد منهما كل مدخر، بل تداينا من أجله، ناهيك عن الإرهاق النفسي والعصبي الذي أحدثه المسمى بـ «الحقن المجهري».

كانت علامة فارقة في طريق بحثهما عن الذرية؛ حيث إنها المرحلة الكبرى وشبه النهائية التي عُقدت عليها الآمال وجُمعت من أجلها الأموال، وبلغت القلوب فيها الحناجر خوفًا من أن يُجهض ذلك الأمل.

بعد فشلها... كانت أيامًا عصيبة، زاد الحزن على الحزن، تعمق جرحهما وأصبح جرحين، جرح عدم الخلفة، وجرح فقدان الأمل.

غمرتهما حالة من الاستسلام والرضا الاضطراري؛ حيث لا شيء يستطيعان فعله بعد.

بدأ يعلو بداخلهما صوت لطالما كان خافتًا: «ضاعت حياتكما وذهبت



سعادتكما التي راهنت على مجهول ليس بأيديكما، فلا تتركا المستقبل يضيع كما ضاعت سنوات عجاف».

ثمة شيء ما زالا يداومان عليه رغم مرور تلك الخمس سنوات.

مع كل هذه المحطات من الفشل، يُنسج لهما أهداب أمل هش يتعلقان بطرفه كل شهر، مع حلول اندلاع نوة الحيض، مر يوم واحد على الموعد المتوقع لتلك النوة، يوم واحد لا يعني شيئًا، فقد تأخرت من قبل سبعة أيام ثم أتت على حين غرة، أودت أمامها بحلمهما البكر، كان ذلك صوت داخلهما الذي يجمح بزوغ شيء من التفاؤل بدأ يشب من خلف اليوم المنقضي دون دم، ذلك الصوت العاقل، ما هو إلا إنذار حتى لا يفرطا في الفرحة فيحزنا عند مجيء متوقع.

كان لديهما اختبار للحمل من الشهر الماضي، لم تمهل الدورة «أمل» حتى تستخدمه، فقد أتت بعد شرائهما له.

في لقطة متكررة دخلت «أمل» الحمام تحضر للتحليل.

بينما «زكريا» ينتظر على الباب حتى تفتح له باب الحمام كعادتها بعد أن تقطر على الجهاز النقاط فيشاهدا سويًّا خيبة الأمل وتلاشي الحلم.

وفي لحظة تُحتبس فيها الأنفاس وتشخص العين على علامات الاختبار.

بدأ الخط الثاني في الظهور على مهل وخجل كتنفس الصباح بتراخٍ بعد ليلة طويلة شديدة السواد.

فقط في هذا الوقت تنفسا الصعداء التي كانت محتبسة منذ خمس سنوات.

لحظة قد أذابت سنوات من الألم، وخط وردي قد خط سعادة لمستقبلهما طال انتظارها.



أتى الرزق والفرج بعدما استنفدا كل الأسباب، وأوصدت كل الأبواب، فكانت العطية من رب الأسباب. ما أجملها من فرحة بعد استيئاس!

لحظة لن تُنسى ولن تُمحى، حتى بعد أن تجسدت الآن أمام أعينهما بطفلهما صاحب العامين من عمره والخمس سنوات انتظار.

ها قد أصبح اليوم لزكريا يحيى، ولصلبه أثر، ولاسمه امتداد.





(٨)

«ما أجمل أن تضحك الحياة لعمارها وأبناء الكد فيها،
وما أجمل أن يسطر الأبناء شرفًا لذويهم يعوضهم عن
سنوات من التحمل وشدة العيش من أجلهم!»





قارورة بحق كانت منذ نعومة أظافرها، بدا ذلك في حيائها الجم، ورقتها البالغة، فبمجرد نظرة عتاب من أبويها يكتسي وجهها الناصع بالحُمرة؛ الأمر الذي كانا دائمًا يتحاشاه والديها، بل كانت صفات القوارير ممتدة إلى صحتها وجسدها، وهو الموضع الوحيد الذي كان يحزن والديها، فكان يُخدش سطح صحتها الشفاف من أقل تغير في الطقس. كانت كثيرة الإعياء لطالما قال الأطباء عنها تحتاج لرعاية أكثر، وإن كان ليس ثمة تقصير من والديها.

بلغ خوف والديها ذروته عندما تصاعد الأمر لحتمية دخولها حجرة العمليات لإجراء عملية «اللوز» بمستشفى إيتاي العام،وإن كان منتشرًا عند الأطفال في عمرها أصحاب الخمس سنوات، لكنه الخوف الطبيعي على فلذة الكبد والقارورة الحساسة. لم يكونا على علم أن ذروة الخوف هذه ستكون أهون إذا ما قورنت بما سيأتي بعدها. نعم كان أشد وطأة عليهما عندما بلغت الثامنة من عمرها وتوالت عليها الأزمات، وكانت تتأثر من أقل مجهود، فكان من الحتمي عمل عملية توسيع فى أحد شرايين القلب، بعدما تبين من الفحوصات الطبية أنها تحتاج إلى ذلك بشدة وعلى عجل، وقد اجريت لها بمستشفى معهد دمنهور. زاد من صعوبة ذلك اليوم على والديها احتياجها لنقل دم، لكن القدر كان رحيما ومرت العملية واليوم



بسلام عليها وعلى والديها وكأن هو الجانب الآخر من القدر الذي عليهما الرضا به، كما فرحا بجانبه الأول من قبل أن رزقهما الله فتاة في غاية الجمال تبدو فطنتها من صغرها.

مرت شهور وشهور، بل سنوات، اشتد عود الصغيرة وترعرعت في بيت أبويها الحانيين، ما زالت هي سلوة الأب الكادح والأم الصابرة، وفاكهة أيامهما. كان والدها شديد الدلال لها، استمدت ثقتها بنفسها منه، يعقد عليها الآمال، يشاركها في كل الأمور، دائمًا ما يتشرف بها في مجالسه، دائمًا ما يثني على جمالها وينتبه لما ترتديه من ملابس جديدة، كانت مشبعة بالحب وكلمات الثناء على جمالها وصفاتها وزيها، كان يؤمن والدها أن أفضل طرق التربية هي الحب، الذي إذا افتُقد من الأسرة يبحث عنه الأبناء في الخارج، وبالأخص إن كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها في أواخر المرحلة الإعدادية وفي سن المراهقة، فاستطاع والدها أن يكون بداخلها المقياس الأكبر لشاب الأحلام، لم يحرمها من مدح، كان مهتمًّا بدلالها، جعلها في هذه المرحلة من الرهق والتقلب في شدة الثبات وشدة الكبرياء، ذات نفس مشبعة بالدلال والحنان، كان يعود والدها من عمله حاملًا أكياس الحلوى والشيكولاتة، لم ينقطع ذلك منذ أن بدأت تأكل ويكون لها مفضلات من الحلوى؛ وهو ما جعل تفكيرها منصبًّا كيف تسعد هذين الأبوين؟ وليس الخروج من حظيرة ولايتهما، فما شعرت يومًا بأن لتلك الحظيرة سورًا، كان سياج حريتها شفافًا حتى لا تراه فتريد اجتيازه، بل إن كل جهدها هو والداها، وكانت أول هدية لهما أن كانت الأولى على مدرستها في شهادة إتمام المرحلة الإعدادية.

لم يتغير الأمر كثيرًا عند دخولها المرحلة الثانوية، إلا أن هدفها قد تشكل وتحدد «كلية الصيدلة» وكانت أيضًا أمنية والدها، فمنذ تخطيها المرحلة



الإعدادية، كان يناديها بـ «دكتورة» وإن كان مقصده في بداية الأمر هو كلية «الطب» وأن تصبح طبيبة، لكنه نزل على رغبتها بعد أن ساقت له دوافعها ومبرراتها، وفي النهاية كلية قمة وذات وجاهة اجتماعية، ذلك الأمر الذي ينكره الكثير على البسطاء تمنيهم كليات القمة ـ كما يُطلق عليها – لبنيهم، لكنه من جهة أخرى طموح مشروع جدًّا، بل ومنطقي؛ حيث معظم الأحلام الكبرى تحتاج إلى المال والجاه والمحسوبية، أما الدراسة، فما زال حلم التفوق فيها متاحًا للجميع، وغالبا هي المحك الوحيد الذي يعتمد على الجهد والعمل والفروق الفردية في بلد أكثر الوصول فيها لأصحاب الوساطة والنفوذ والمال!

رغم اهتمام ابنته بمستقبلها وحلمها، ورغم قلة يده وبساطة حاله، لم يغفل «عادل» التعزيز والحافز المادي، فرصد لتفوقها في المرحلة الثانوية ووصولها للهدف المرجو عدة مكافآت، أولها، شراء شقة في الإسكندرية وإن كانت في مكان ناءٍ على أطراف المدينة، لكنها في المدينة التي طالما تمنتها ابنته، وهي المفاجأة الكبرى لها، فقد علم أثناء زيارتها المتكررة إلى المدينة، أن هناك بعض الأماكن المتطرفة بها بنايات جديدة للبيع على أقساط يسيرة، ومقدم يستطيع تدبيره وهو سبعة آلاف جنيه، فقد كان يدخر مما يأتيه من عمله لابنته، وساعده على ذلك أنه لم يكن يدخن أو يجلس على المقاهي، رغم بعدها عن تجمع الناس، إلا أنها تجاور البحر، بل هي بالأساس تصلح أكثر للمصايف لا للسكن الدائم، لخلوها التام من السكان وقت الشتاء.

مكافأته الثانية أن رصد لها مبلغ ثلاثة آلاف جنيه لشراء ملابس جديدة لارتدائها في مرحلتها الجامعية المقبلة.



بالفعل لم تخيب «بتول» رجاء والديها، ولم تهدر تعبهما سدى، فلم تكتفِ بمجرد أن تصل للمجموع المطلوب لدخول «كلية صيدلة» الإسكندرية، بل كان لها ترتيب على محافظتها، وكُرمت من المحافظ، ونالت جهاز حاسب محمول.

ما أجمل أن تضحك الحياة لعمارها وأبناء الكد فيها، وما أجمل أن يسطر الأبناء شرفًا لذويهم يعوضهم عن سنوات من التحمل وشدة العيش من أجلهم!

هنالك شعر «عادل» بجميل فعله، واطمأن قليلًا على مستقبل ريحانته من بعده، حصَّنها بالعلم والوعي، ومن قبلهما بالخلق القويم والنفس السوية.



(٩)

«ما أطول ليل ننتظر نهاره!»





ما أطول ليل ننتظر نهاره! هكذا مرت هذه الليلة على آل «عادل» فرحة.. ترقب.. تفكيرً.. استعداد.

قضتها «بتول» على فراشها مسترخية بعد أن انفضت من تجهيز ملابسها الجديدة وأدواتها الكتابية، لم تستطع النوم، يسبح بها الخيال في طرقاته، يصوِّر لنفسها هيئة «كلية الصيدلة» شكل الحياة الجامعية، كيف ستكون مع زملائها الجدد! بل ذهب خيالها لأكثر من ذلك، بأن رسم لها عروس البحر الأبيض المتوسط، لم تستطع الانتظار حتى تراها بالعين، ذهبت إليها بخيالها وتمنيها، تلك المدينة التي لطالما حلمت أن تزورها، كانت تغبط والدها أنه يزورها كل يوم، على الرغم مما كان يقوله عندما يكون الحديث عن هذا، أنه رغم كل هذه الزيارات للإسكندرية، إلا أنه لم يرَ منها سوى تلك الكتل الخرسانية العابسة في وجهه، وأنه يأتي منها مغبر الوجه والملابس، منهك الجسد، يذهب إليها للبأس لا للاستجمام والراحة.

أما «عادل» فبين فرحة ورجاء، سعادة وقلق، فحلمه الذي تمناه كثيرا لابنته غدا سيكون واقعًا، لأول مرة يشعر بالإنجاز، وأن لشقائه ثمرة، يشعر وكأنه في الصباح سيوصل كريمته إلى مقر عرسها وليس إلى جامعتها، أمر يتسق كثيرًا مع فهم هذا الرجل بسيط الحالة عميق الفكر، فكره لم يقف مثل أقرانه من رجال قريته أن غاية البنت الزواج، وهو حالة نجاحها الأكبر،



إن لم تنله فهي معيبة، مهما كان نجاحها أو تعليمها أو مدى ثقافتها، وعلى الرغم من كل هذا الفرح بداخله، إلا أن ثمة قلق يتسلل إلى نفسه، لا يعلم من أى شيء مصدره، ربما خوفه على حوريته البتول من هذه المدينة المادية، وطريق غدوها ورواحها، وهي صوت بيتهما الهادئ وحلوهما الذي يستعينان به على مر العيش.

«حياة» لم تكن بأفضل حال من زوجها، بل أكثر قلقًا وخوفًا، كانت دائمًا متذكرة لموعد بدء الدراسة وكأنه شبحها الذي تخشى حضوره، كلما تخطى قطار الأيام يومًا زاد همها.

صباح ليس كصباحات «عادل» وإن كانت الوجهة لم تتغير، لكن السبب اليوم مختلف وهيئته أيضًا، اليوم يصطحب في يمينه زهرة أيامه الحسناء، لا زكيبة عدته الواعرة، يلبس أفضل ما لديه من ثياب حتى يبدو أنيقًا بجوار «الدكتورة».

أما تلك الحسناء، فقد ارتدت أحد أطقمها الذي أعدته بعناية فائقة بعد نجاحها في الثانوية لهذه المرحلة من الدراسة.

كفكر أبيها الفريد عن أصحابه في تلك القرية، وكجمالها النادر الفريد أيضًا. كان اختيارها لملابسها وهيئة هندامها، فكانت تتابع الأزياء الحديثة من نفس نوع ملابسها، وهي العباءات الطويلة، أرادت أن تحافظ على ما تعودت عليه وما تحبه من هيئة، وأن تكون في نفس الوقت أنيقة الملبس والطراز، فكان اختيارها لتلك العباءات الماليزية والتركية، فضفاضة القالب، زاهية الألوان، عصرية الطراز، جمعت بين جمال الشكل والحفاظ على ما نشأت عليه، فكانت طاووسًا زاهيًا، تسير مع والدها على استحياء، وجهها شامي الملامح، وحجابها من الحرير اللامع، وعباءة يبدو أسفلها



واسعًا كتنورة العرائس أو الملكات، قوام رشيق متسق الأبعاد، رقيقة كالفراشات.

أخذ والدها يوضح لها خط السير ومعالم الطريق الذي سيكون مضمارها شبه الدائم، لكنه اليوم فقط تخلى عن وسيلة نقله المعتادة «القشاش» رآه لا يليق بكريمته ولا بيومها الأول للكلية، لا سيما أيضًا أنه لن يكون وسيلتها للوصول إلى الإسكندرية، بل حافلات «الدلتا» التي سيكون لها اشتراك مخفض لركوبه من الكلية.

وصلا إلى محطة انتظاره بمحافظة البحيرة... استقلاه إلى الإسكندرية.

كان الوداع على مدخل الكلية وداعًا مؤقتًا، فسينتظرها في الخارج على أحد المقاهي، حيث من المقرر عودتها معه بعد إتمام إجراءات قيدها، والتعرف على جدول محاضراتها وأيامها للحضور والساعة.

أخذت عينه تحرسها وهي في طريقها للدخول، وصولًا بوقوفها في طابور الدخول الطويل لحضور عدد كبير من الطلبة في بداية عام دراسي جديد، علاوة على روتين التفتيش المقيت للطلبة على البوابات.





(١٠)

«الالتزام لا ينافي الأناقة، ولا هو قيد يحول دون التجمل»





كالقمر في ظلمات الليالي، هو الأوضح في صفحة السماء الشاسعة، كان كذلك حضورها في ساحة الكلية الواسعة، على الرغم من التكدس بأعداد الطلاب الكثيرة، وذلك أن سنة الدراسة الأولى لطلاب كلية «الصيدلة» تكون في كلية العلوم مع الفرقة الأولى من تلك الكلية؛ مما زاد الازدحام.

مع ذلك كانت خاطفة للأبصار، ليس لجمالها الملفت فقط، ولكن أيضًا لهندامها الرفراف زاهي اللون، فكانت ترتدي حلة سماوية اللون كسماء الإسكندرية الصافية، مميزة الطراز، وحجابًا من نفس اللون متغير الدرجة من الحرير، يبدو متلألئًا مع أشعة الشمس كماء بحرها أيضًا.

الاختلاف دائمًا خاطف للأبصار ومسترع للانتباه، وحبذا لو كان ذلك التميز والاختلاف دون ابتذال أو نشاز لو كانَ بالتميز والإبداع والتجمل، وليس اختلافًا من تخلف أو خروج عن المألوف.

كان لها فلسفة في اختيار ملابسها تريدها أن تصل، وهو أن الالتزام لا ينافي الأناقة، ولا هو قيد يحول دون التجمل.

داخل الكلية تعرفت على «هناء» من قاعدة «الطيور على أشكالها تقع». تعرفت عليها وهي تسأل عن جدول محاضراتها ومواعيدها، فكانت «هناء»



من الفرقة الثانية بكلية «العلوم» تجلس على مكتب تابع لأسرة طلابية لإرشاد الطلاب تسمى أسرة «الصفوة» تصادقتا سريعًا، خاصة أنهما من محافظة واحدة «البحيرة» إلا أن «هناء» من مركز إيتاي البارود التابع له قرية «اشليمة» وهو ما سر كثيرًا «بتول» عندما علمت به، فقد توافقت أرواحهما وسمتهما، فجاء توافق القدر لهما هدية ليكونا من محافظة واحدة قد يأتيان سويًّا بعد ذلك.

تبادلتا أرقام هواتفهما المحمولة وتواعدا على الاتصال لتنسيق موعد نزولهما للكلية فيما يتوافق بينهما من محاضرات، وهو أيضًا ما جاء على مرادهما، فجدولهما يتشابه في أغلبه إلا قليلًا تزيد فيه «هناء» الحضور عن «بتول» وهذا من حسن القدر، أن يكون كل حضور «بتول» مقابلًا لحضور «هناء».

خرجت «بتول» إلى والدها والذي كان قابعًا على أحد المقاهي ينتظر كريمته، أخبرته بما حدث وبمن صادقت، ما أسعد والدها جدًّا أن تجد صديقة تلازمها من نفس مركزها ومحافظتها، لا سيما وأن خُلقها لا يختلف عن «بتول» بما نبأته به ابنته.

عاد الغائبان إلى ملاذهما الدافئ تنتظرهما الزوجة والأم الحنون بلهفة، فمنذ ميلاد «بتول» لم يمر عليها يوم كهذا تكون فيه وحيدة تنتظر، يوم ذكرها بأيام قبل مجيء «بتول» وهي تنتظر زوجها وتستعد له بما يسره في يوم طويل من العناء..

....

مرت أيام وأيام، أتمت «بتول» شهرها الأول في الكلية، توثقت جدًّا رابطتها بـ «هناء» ولم تصبح فقط صديقة طريق، بل صارت لدنياها أقرب



رفيق، وكان أكثر ما يؤرقهما، هو أن «بتول» سترحل عن كلية العلوم العام المقبل لتكون في كليتها «الصيدلة» وهو ما جعلهما يأخذان على نفسيهما الكثير من المواثيق والعهود على ألا يفترقا أبدًا.

نشاط «هناء» الدائم في الكلية أضاف الكثير لـ «بتول» في شخصيتها المنعزلة نوعًا ما؛ نتيجة ظروف نشأتها، وإن كانت في طبيعتها اجتماعية، فاشتركت معها «بتول» في عمل أسرة «الصفوة» وإن كان بالتطوع فقط وليس بصفة رسمية؛ مما أضاف لها الاحتكاك الكثير، فكانت مسئولة التثقيف الديني للأسرة، من كثرة اطلاعها وثقافتها الدينية وميولها؛ ما زادها انتشارًا، علاوة على جمال طلتها التي تستأثر بالأبصار.



(١١)

«أحيانًا تفكيرنا في أمر الإنجاب يقف عند حد إسعاد أنفسنا بهم دون النظر أو التفكير فيما سيسعدهم عند كبرهم»





ما زالت دورة حياة «الشقاء» تدور عليهم، ويتسلمها جيل من جيل، فاكتمل عقد ثلاثتهم مرة أخرى من بعد ما تقاعد «عم صابر» تحت وطأة الشيخوخة، فما عاد يستطيع الضرب بيد من حديد فتسقط الجدران الشامخة. كان في أيامه الأخيرة تسقط المطرقة من يده المرتعشة، بينما تقف الجدران أمامه صامدة تنبئه بضعفه وكبره، أخذت «الخرسانة» من صحته على مدار أعوام عديدة، وهو الآن طريح الفراش، لا معاش يقتات منه، ولا تأمين على صحته يعفه عن السؤال من أجل شراء الأدوية، اكتمل عقدهم الذي نقص من أكبرهم سنًّا بأصغرهم سنًّا، اكتمل ثلاثتهم مرة أخرى بـ«يحيى» ذي السادسة عشرة من العمر، ذلك الفتى الذي لطالما تمناه «زكريا» فأقر اللـه عينه به بعد انقطاع الأسباب، فوهبه للشقاء صبيًّا، ولسان حاله: «يا يحيى خذ المطرقة بقوة». هذا الفتى الذي صرف «زكريا» من أجل مجيئه الغالي والنفيس، حان دوره ليأتي ببعض الجنيهات، ظنًّا منه أنه يعلمه الخير ويمنحه صنعة تستوجب أن يشكره عليها في المستقبل، وخوفًا من أن ينبت كالزرعة الخائبة المائلة، لم يعبأ والده بنصائح أخيه الكثيرة في هذا الشأن، وأنه لا بد أن يهتم أولًا بتعليمه، عله يصنع لنفسه مستقبلًا أفضل، أو ينأى بنفسه عن ذلك المضمار المهلك والواعر، وأن يتركه لينعم ببعض طفولته، مذكرًا إياه بأنه أتى بعد شق الأنفس، جاء ليتنعم به، لا أن تتفتح زهرة شبابه في البأس.



أحيانًا تفكيرنا في أمر الإنجاب يقف عند حد إسعاد أنفسنا بهم، وأننا حققنا ما كنا نتمناه دون النظر أو التفكير فيما سيسعدهم عند كبرهم، أو كيف سنحقق ما يتمنون هم!

فيكون جل تفكيرنا في أمر الإنجاب، لا في التربية، وكيف سننجبهم، لا كيف نحييهم حياة طيبة!



(١٢)

«لغة الجمال واحدة يطرب لحديثها كل الناس»





يبدو أن الجمال الحقيقي لا يختلف عليه اثنان، وإن كان الجمال أمرًا نسبيًّا يختلف من ذائقة لذائقة، ولكل شخص معاييره في الجمال، ويبدو أن الجمال الحقيقي أيضًا لا يتوارى، ودائمًا بازغ كقرص الشمس، لا يحتاج إلى إيضاح أو تجميل كي يبرز، هكذا كان حال «بتول» بين زميلاتها، ساطعة لا يحجب نورها شيء، ولا يطغى على حضورها حضور.

أن يُعجب بجمالها شباب ممن يستهويهم ويفضلون ذلك الطراز من الملابس فهذا أمر بديهي؛ ذلك أن جمالها الرباني يزين أي طراز تتلبسه، أما أن ينجذب إليها ذلك الشاب الوسيم للغاية، هدف شباك أكثر فتيات الكلية، فهذا يدل على أن لغة الجمال واحدة، يطرب لحديثها كل الناس، وأن جمالها لا خلاف عليه.

هكذا كان حال «عمر» طالب الفرقة الثالثة بكلية «العلوم»، الشاب الذي لا تستعصي عليه فتاة في كليته أو الكليات الأخرى، أو حتى خارجها، وكأنه يعوض سنوات من الانغلاق في الثانوية العامة باءت بالفشل عندما لم يستطع تحقيق رغبة أمه الكبيرة بأن يدخل «الطب». منذ أول يوم رآها فيه بداخل ساحة الكلية وقد لفتت أنظاره، وتعلقت صورتها بداخله، وإن كانت رؤيته الأولى لها كان يصاحبها شيء من الاستهجان على ما ترتدي!



«كيف لذلك الجمال أن يختبئ تحت خيمة يعتقدون أنها ملابس؟!». كان استهجانه نابعًا من وسطه الذي يحيا فيه، وما حوله من فتيات قد ارتبط بهن من قبل أو صادقهن.

ربما كان الاستهجان نوعًا من الإنكار الداخلي لنفس اعتادت أن تكون هي محل أنظار الفتيات. فكيف به يعترف بتلك الريفية البسيطة أو استكبارًا أن يقول إنها مختلفة عن كل من رأى وصاحب؟ وإلا ما سبب ترقبه لها منذ أول يوم لرؤيتها وقد مر أكثر من أربعة أشهر، حتى علم في أي الأماكن تجلس، ومن تصادق من فتيات؟ بل تعدى الأمر أسوار الكلية، فقد أخذت حيزًا من باله وتفكيره، في بيته وبين أصحابه، وهو ما كان يجاهد إخفاءه عن أقرانه خوفًا من أن يكون محل سخريتهم، فكيف يقع هذا القيس الرومانسي في شباك تلك البسيطة في الهيئة والمحافظة جدًّا؟!

دائمًا ما يكون إيجابيًّا عند هذه المواقف، فلا يجد حرجًا من أن يبدي إعجابه بأية فتاة ويصارحها بذلك، كثيرًا ما يرى نفسه قيمة تضاف لأية فتاة، ولم يخش يومًا ردًّا سلبيًّا أو رفضًا، أما هذه المرة، لم يحاول قط أن يبوح، ليس فقط أنه لا يجد لذلك سبيلًا، فوقتها محدد وحضورها مرتبط بمواعيد المحاضرات، ولا يجد معها دائمًا سوى صديقة يبدو عليها أنها من نفس محل سكنها لارتباطها الوثيق بها، لكن ثمة سبب آخر يحول بينه وبين ذلك البوح، هو أنه لا يستطيع ذلك، فلوجهها وقار يُخشى رغم براءة ملامحها، ولسمتها شموخ وعمق يعطي انطباعًا أنها فتاة استثنائية لا يجدي معها الحديث المعتاد.

....



«بتول» في عالم آخر، لا يشغلها ما يشغله، بل لا يشغلها أمر كل شباب الكلية، ربما رأته يومًا وكان ضمن أولئك الشباب محل سخريتها أو استهجانها من ملابسه أيضًا، فمشاعرها ما زلت بكرًا، وعاطفتها مكدسة بحب والديها، ما زرعه «عادل» في نفسها جعلها لا ترى من الرجال سواه، بل قد لا يلفت نظرها أي من شباب الكلية، فمقياس الحنان والرجولة والاحتواء كان والدها، ذلك المقياس الذي يسقط بسببه الكثير من الشباب فى نظرها أمامه، فقد تعلمت من والدها أن يكون حكمها على الجوهر لا المظهر، في وقت يتبارى فيه الجميع ليكون الأجمل في أناقته، أناقة ربما تراها شيئًا من التدني الذي لا ينبغي أن يكون للرجال، وتعلمت أن تكون الأفعال هي المحك وليس مجرد حديث معسول يدغدغ العواطف، وأما الأفعال، فقد أغدق عليها والدها إغداقًا، فامتلأ داخلها وفاض، لا فراغ بداخلها يجعلها تستعجل أي امتلاء.

كان يظن أن الأيام وحدها كفيلة بأن تثبت أنه إعجاب عابر، وأنها ستنمحي بأخرى، لكن ظنه بدأ يضحض، فقد مرت أيام أخر وقد ازداد شغفه وولعه بها، أصبح مكانه المفضل أمام مكتب أسرة «الصفوة» مما جعل أصدقاءه يشكون في أمره، فقد تغير كثيرًا عن ذي قبل، بل أصبح يمقت الكثير من تصرفات صديقاته إذا ما قارنها بما عليه «بتول». لأول مرة يشعر بأن هناك فتاة غير مستهلكة صعبة المنال، لا يعنيها ما يعني قريناتها.

الآن.. والآن فقط أيقن أن عليه اتخاذ خطوة، لا يدري ماهية هذه الخطوة! بوح أم تعارف أم ماذا؟! لا يدري! كل ما يدريه هو أنه أصبح متعلقًا بها، يحب أن يراها، يبتسم إن رأى ابتسامتها أو تذكرها من مخيلته المحفوظة بداخلها، يستدعي صورتها دون شعور عند سماعه أغنية



عاطفية، جل أحلامه أن يحدِّثها يومًا ما على انفراد، وهو الذي يحدِّث يوميًّا العديد من الفتيات.

كل ذلك جعله يفكر في خطوة سريعة، خاصة أنه مر النصف الأول من الدراسة وتبقى لها نصف في كلية «العلوم» وهو الكابوس الذي دائمًا لا يحب تذكره أنها ستغادر الكلية بعد أشهر.

فكان أول ما تفتق به ذهنه «صديقتها» القاموس التقليدي عند شروع أي شاب في التقرب من فتاة، أول ما يلوذ به غالبًا صديقتها.

لكن عن أي شيء سيحدثها؟!... سؤال راوده طوال ليله، كانت الإجابة التي لجأ إليها للهروب منه وتجاوزه:

«سأقول ما أشعر، لن أستحي، سأقول ما بداخلي فقط».

لم يضيع وقتًا، ففي اليوم التالي ذهب إلى «هناء» مشحونًا بعدم الصبر، وبعاطفة صادقة، ربما للمرة الأولى.

أشار إليها من بعيد وهي في جمع من الطلبة يتساءلون في شؤونهم، ذهبت إليه فاستأذنها بأن يتنحيا جانبًا ليتحدثا في أمر هام؛ الأمر الذي لم ترفضه رغم غرابته.

قص عليها ما يعتريه تجاه صديقتها «بتول» وأنه يريد أن تخبرها بذلك، فكان ردها الذي جعله يعيد النظر في الأمر بتمعنٍ وأناة.

ـ بالطبع سأبلغها بما قلت، لكني سأضع نفسي موضعها، وسأتكلم بما أتيقن أنه سيكون كلامها، نحن لا نقبل بتلك المشاعر إلا إذا كان ما بعدها من ارتباط، هذا سبيل الحب الذي نعرفه وتربينا عليه، وفي حقيقة الأمر، لم أجد في حديثك ما يقول هذا، فقط أنت تريد أن تبوح ولا تتحدث فيما



هو بعد، فهل هناك مشروع للارتباط بها مستقبلًا؟

في هذه الأثناء تلجم «عمر»، بالفعل هو لم يفكر فيها بعد، بل لم يفكر في أي من علاقاته السابقة في أبعد من ذلك. عاد لنفسه سريعًا بعد لحظات من الشتات قائلًا:

ـ معذرة.. فقط أبلغيها من حيث المبدأ الآن.

عاد أدراجه خائبًا، رغم أنه لا رد أتاه منها، لكن حديث صديقتها جعله يقف على أمور لم يفكر فيها كثيرًا، جعله يقف عند حقيقة نفسه أنه فقط يريد أن يصل إلى سلوته ومراده، لم يشأ يومًا شيئًا إلا وكان حاضرًا؛ ذلك لنشأته المدللة في أسرة ثرية لا تكترث فيما يُدرك بالمال، فالوالد «أحمد المعز» صاحب توكيلات صيانة لأشهر ماركات السيارات، بعدما كان يمتلك سلسلة محلات قطع غيار السيارات، وأمه سليلة عائلة كبيرة ذات جاه ومال.

تعامل كثيرًا مع الفتيات من منطق، أنه إذا اشتهى أيهن تحدث معها وأخذ نزوته منها، والتي لم تتعدَّ الخروج وتبادل معسول الكلام، ولم يفكر فيما هو أبعد من ذلك من أن يرتبط بإحداهن.

إن كان النصيب الأكبر من الخطأ يتحمله هو، إلا أنه لا يُعفي تلك الفتيات اللاتي تساهلن معه، فظن أن الجميع سواء.

لم يعد ينتظر ردًّا على بوحه قدر تفكيره فيما قالت «هناء» وذلك لعلمه أن صاحبتها لن يكون ردها بعيدًا عن ذلك.

مرت أيام كان فيها يتحاشى أن يتواجد في المكان القريب من أسرة «الصفوة»، فقد أفصح لصديقتها، وعلى عكس المتوقع، ذلك الإفصاح



أخجله ولم يرِحه، وإن فتاة كـ«بتول» أكبر قيمة من أن يرسل لها أنه معجب بها، حتى تعلم وتكون إحدى فتياته اللاتي يتسكع بهن. لأول مرة يشعر أن بوحه ذلك إهانة وليس جائزة لفتاة أنها ستكون ضمن معلقاته الكثر!

رغم ابتعاده عن مكان تواجدها، بيد أن «بتول» قد استوطنت بداخله، وهي التي لم يحدثها يومًا، لكن تعقبه لها على مدار أشهر، توازى مع ابتعاده عن كل الفتيات، جعله يشعر أنها حالة فريدة عن سوابقها، وأنه بالفعل وبكل صدق لا يريد سوى «بتول» على هيئتها وطريقتها، فكان القرار الذي تخمر بداخله حتى خرج وتأكد أنه يريده دون لبس أو مجرد إعجاب وقتي، هو أن يرتبط بها.



(١٣)

«الشعور ليس ذنبًا أو خطيئة، والفعل ما سنُحاسب عليه فقط»





على الرغم من أنها لم تعطِ ردًّا لصديقتها، ولم يكن لها أي يد في ذلك الأمر، ولم تفعل ما من شأنه يجعلها تشعر بأنها اقترفت خطأ، إلا أن «بتول» منذ أن نبأتها صديقتها بأمر «عمر» وينتابها شعور بالذنب تجاه والديها، والوالد تحديدًا، ربما لأنها قد قررت من قبل ألا تنبئهما، لأنه لم يحدث شيء، وكأنها لم تسمع من «هناء» من الأساس، ذلك ما لم تعتده من قبل، أن تخفي شيئًا عن والديها، همت أكثر من مرة بأن تحدثهما وترفع ذلك عنها، لا سيما وأنه من الأساس لا يعيبها شيء، لكن بعض الخجل كان يعتريها، شعور لم يأتها من قبل تجاه والدها، لكن الموقف يُنتج ذلك فكيف تحدِّث أباها أن شابًّا معجب بها ويترقب تحركاتها في الكلية؟! كان ذلك عليها عسيرًا.

بعد تردد وتراجع لأكثر من مرة خلال بعض أيام، قررت أخيرًا أن تبدي لأبويها، وإن كان من بعد حديث «هناء» لها لم يكن أي جديد.

تحدثت إليهما وحمرة الخجل لم تفارق وجهها طوال حديثها، وكأنها أتت بمصيبة، وهو ما تقبَّله والدها بضحكة بسيطة، حتى يرفع عنها الحرج قائلًا:

- سيأتي يوم ويُعجب بك شاب كما أُعجبت بوالدتك وتزوجتها، الشعور ليس ذنبًا أو خطيئة، الفعل ما سنُحاسب عليه فقط، وأنا أدري



أنكِ أبدًا لن تفعلي خطأ، وإن كان في ذلك الشاب خير سيدخل البيت من بابه، وهذا ليس كافيًا للفوز بكِ، لا بد أن تريديه أيضًا.

رد والدها الأخير زادها خجلًا؛ مما جعلها ترد بتوتر وكأنها تنفي شيئًا عنها:

ـ أنا لا أعلمه ولم أره حتى أريده، وبالمظهر الذي وصفته لي «هناء» لن ينال رضاي أبدًا، أنا ابنة أبي.

رد أسعد والديها كثيرًا، لا سيما والدها الذي شعر بنبتته الطيبة تؤتي ثمارها.

....

عزم «عمر» ولأول مرة أن يصارح أبويه بإعجابه ببتول، وأنه يريد خطبتها، الأمنية التي لطالما ألحت بها عليه والدته.

لكن قبل ذلك، لا بد أن يعرف الكثير من المعلومات عن «بتول» حتى يفاتح والديه، فأوحى إليه فكره بـ «هناء» وإن كان يستحي أن يذهب إليها مرة أخرى، لكن عزمه الصادق وسبب الذهاب دفعه دفعًا.

في اليوم التالي ذهب إليها، وكالمرة السابقة أشار إليها، فجاءت إليه، فنبأها بعزمه وأنه يريد أن يعرف عنوان بتول ومعلومات عن أهلها، وهل هي موافقة من حيث المبدأ أم لا؟

أعطته ما يريد من معلومات، وأما بخصوص موافقتها المبدئية من عدمه، فقالت له سأحدثها في الأمر.

بالفعل رجعت إليها ونبأتها بما حدث، وكان الموقف على «بتول»



شديد الحرج، جاءها على حين غرة، وهي التي لم تشغل نفسها من قبل بذلك مثل الكثير من الفتيات، ولا تعلم من هذا، ولم تكلمه مرة، ولا تشعر تجاهه بأي شعور!

أحالت الأمر كله إلى والديها، فأشار إليها والدها أنها لا بد وأن تعرفه وتسمعه ويسمعها، وإن أرادت ذلك يأتي إليها في بيتهم ويجلس معها وعندها يكون القرار.

هو ما أخبرت به «هناء» التي اقترحت عليها أن يكون لقاءً مبدئيًّا في الكلية إن كان قبول منك يأتي إلى البيت، وهو ما رفضته «بتول» بشدة، فبراءتها وخجلها يحولان دون ذلك، وإن كان الموقف موقف خِطبة.

أخبرت «هناء» ذلك لعمر الذي أتاها في اليوم التالي، بأنها لا تعرفه حتى توافق أو ترفض، إن أراد فعليه أن يأتي بيتها ليتعرفا وليس لخطبتها.

وهو ما تقبله «عمر» وما تبقى سوى خطوة واحدة، هو أن يخبر والديه ويحددا موعدًا.

«بتول».. لا تدري ما الذي يحدث وبهذه السرعة! وكيف أنها من الأساس ستقابله، وإن كان في بيتها ومع والديها! شيء لم يكن في بالها من قبل ولم تكن تنتظره، اهتمامها بالمذاكرة في المرحلة الثانوية وهدفها في أن تكون من الأوائل دائمًا حتى قبل المرحلة الثانوية، جعلها لا تفكر سوى في دراستها، قلة خروجها وقلة احتكاكها ونشأتها المحافظة، كل ذلك جعلها تستغرب الأمر، وكأن مصيرها يومًا لن يكون للزواج!.

على الفور أخبر «عمر» والديه بطلبه، وهو ما تلقاه الأب بفرحة، خاصة عندما سمع من وصف ابنه عن «بتول» فلطالما تمنى أن يكون ذلك



اختيار ابنه. لكن ثمة عقبة لم يتوقعها أبدًا، هي والدته، التي ألحت عليه كثيرا بالزواج، ترفض ذلك رفضًا تامًّا، بل أغضبها أن يكون ذلك اختيار ابنها، من تلك الفلاحة التي يعمل والدها في «الفاعل» على حد ردها!

رفضها كان قاطعًا لا لين فيه؛ ما جعلها تتصادم مع ابنها الذي انسحب من أمامها غاضبًا، وبعد فشل دوافع الأب وإقناعها لها بأنها في كلية «قمة» واسم «دكتورة» يشفع لها.

على الرغم من ثراء الأب الكبير، إلا أنه لم يجد غضاضة من تلك الخطبة؛ ذلك أنه ينتمي لطبقة متوسطة في الأصل، قد بنى نفسه بكده وتوسيع تجارته، على عكس زوجته، والتي لولا ماله ما استطاع أن يتزوجها أو تعرف على عائلتها التي كانت تجارته حبل صلته بهم.

مرت أيام، ازدادت المشاكل فيها بين «عمر» ووالدته وتصدعت علاقتهما، حتى لانت أخيرًا تحت محاولات الوالد تقريب وجهات النظر بأن أقنعها أنه سيكون فقط لقاء، لعلها لن تعجبه بعد أن يلتقي بها عن قرب أو نجد سببًا يقنعه بأن يحيد عن ذلك، وهو ما وافقت عليه، شريطة أن لا تذهب معهما.

أبلغ «عمر» «هناء» برغبته في زيارته بيت «بتول»، وتحدد الموعد..

كان يومًا غريبًا في حياة «بتول» هي التي لم تحدث غريبًا قط، بل كانت تستحي أن تحدث «يحيى» ابن عمها، بل بلغ الأمر ذروته، خاصة بعد دخول الكلية، كانت تخجل من الحديث مع عمها، اليوم عليها أن تحدث شابًّا لأول مرة، وعليها أن تبدي رأيها فيه. كان أشد ما يسوءها هو مصطلح «زواج الصالونات» رغم انتشاره في أوساطها، ولعله هو الطريقة الأوسع انتشارًا للزواج عندهم، لكنها ترفض فكرته عندما



كانت تسمع عنه من زميلاتها اللاتي خُطبن أغلبهن في مرحلة الثانوية كطبيعة الريف، ترفض أن تكون أمام رجل يبدي رأيه فيها، وعليها أن تتزين حتى تحلو في عينيه! ترى ذلك امتهانًا للمرأة، لكن الأمر هنا مختلف أو معكوس، فهي التي ستقرر، و«عمر» يأتيها راغبًا فيها، لكن ذلك لم يقلل من حدة توترها وخجلها من اللقاء.

دقت الخامسة بعد العصر، إيذانًا بموعد الزيارة حسب الاتفاق المسبق. أتى «عمر» ووالده في الخامسة والربع.

اجتمع بهما «عادل» وتناولوا أطراف الحديث في أمور مختلفة بعيدة كل البعد عما جُعلت من أجله الزيارة، حتى بدأ والد «عمر» «الدخول في المفيد» على حد قوله ليكون الحديث بعد ذلك عن الموضوع.

بعدها نادى «عادل» على كريمته كي تحضر وتجلس مع «عمر» كي يتعارفا.

كاد قلبها يتوقف من شدة توترها، وكادت أطرافها تتيبس، وجهها اكتسى بالحمرة، تذهب على استحياء منكسة بصرها إلى الأرض.

ابتعد الأبوان عن نجليهما حتى يفسحا لهما المجال، مرت لحظات عليهما وهما في سكون تام، حتى «عمر» الذي اعتاد أن يتحدث إلى الفتيات، تلجم لسانه وبدا عليه التوتر، موقف الخطبة لا يضاهيه أي من مواقفه الأخرى مع الفتيات، فهو موقف مسئولية وتصارح، أخذ يرفع عينه خلسة يسترق النظرات لوجه «بتول» وكلما رآها كُسرت عينه سريعًا وتوارت وازداد خجله من حضرة نور وجهها!

أما «بتول» فلم تتجرأ حتى على مجرد رفع طرفها إليه، عيناها لا تجاوز الأرض، وجهها اشتد احمرارًا.



لمَّا وجدها «عمر» على هذه الحالة، استجمع كل قواه، وأخذ يدعم نفسه بأنه هو الرجل وهو الأولى بالحديث، ولا بد أن يرفع الحرج عنها ويكسر صمته ولو بكلمة واحدة.

بالفعل تحدث، وبدأ حديثه عامًّا عن دراستها وكليتها، وهل كانت عن رغبة منها، وماذا تحب أن تكون في المستقبل؟ أسئلة عامة يسيرة أذابت جدار الجليد بينهما ببدئها بالرد عليه، وإن كان بردود مقتضبة سريعة.

في هذه الأثناء أيضًا جمَّعت «بتول» أوصالها، وقررت أن تسأله هي الأخرى وتخلع عنها هذا الخجل المبالغ فيه، وإن كان ذلك مرهقًا للغاية، لكنها فكرت بعقلها حتى لا ينتهي اللقاء وتكون غير قادرة على الحكم أو لم تفهمه بحق،

فبدأت تلقي عليه الأسئلة وكأنها تتخلص من بضع كلمات على لسانها، أسئلة كانت تريد بالفعل أن تعرف رده عليها وليس لمجرد ملء سكون جلستيهما. كانت أسئلتها حول مبادئه، وما يحب وما يكره، وما يتمنى فعله من طموح؟

وهو ما رد عليه «عمر» بسطحية تلقائية صادقة منه تتسق مع ما تربى عليه وما تعود، فبدا لها دون مبادئ تذكر، واكتفى بما يحب من أطعمة وفنانين، وكان ما يكره هو الصاحب الكئيب، أما طموحه، فهو مجرد التخرج كي يلتحق بدبلومة؛ ومن ثم ينشئ له والده معمل تحاليل طبية.

ردود لم تُرضِ «بتول» ولم تجد فيها أي توافق نفسي ولا فكري، فقد تربت على معالي الأمور، فكيف ترضى بسفاسفها؟! وإن كان وسيمًا ذا عائلة ثرية، كل ذلك لا يرضي نفسًا تربت على الغنى، ويبقى أكثر



ما أحبطها هو إجابته عن سؤالها عن سبب اختياره لها؟ فكان رده لجمالها الشديد، وإن كان الجمال شيئًا لا يستهان به، وإنما هي ترى في نفسها جوهرًا يتعدى ذلك الشكل الخارجي الجميل، ترى فيها فكرًا هو أهم تفاصيلها.

انتهت الزيارة دون أي رد أو حتى إيماءة من «بتول» تظهر أي شيء، أمر متوقع، لكن «عمر» كان يتمنى أن لو يلوح له شيء مبدئي يطمئنه. خرج «عمر» من بيت «بتول» وقد ازداد تعلقه بها وتمنيه لها، أثبتت الزيارة أنه لم يكن إعجابًا عابرًا، أما والد «عمر» فخرج أيضًا بانطباع إيجابي، على الرغم من تواضع بيت «عادل» لكن حديثه كان راقيًا مثقفًا وهو ما أدهش والد «عمر»، أما «بتول» فكما قال عنها لابنه وكأنها ملاك من السماء.

وعلى عكس ما أحدثته الزيارة في نفس «عمر» وأبيه، كان انطباع «بتول» عن «عمر» سيئًا للغاية، لم تُغرِها تلك السيارة الفارهة التي أتيا بها، ولا تلك الهدايا القيمة التي دخلا بها، رغم بساطة معيشتها، فكان ردها على والدها للتو دون أن تنتظر حتى مجرد ساعات للتفكير هو «الرفض» وهو ما حاولت أمها أن تثنيها عنه حتى تفكر مليًّا، فقد نظرت «حياة» للأمر بعين أنه عريس لا يُرفض، قد ينتشل ابنتها من ضيق العيش إلى رغده، وهو ما أنكره عليها «عادل» بشدة، وأن «بتول» هي أغلى من أي شيء، ولن تكون إلا لمن يستحقها وليس لمن يدفع ثمنها، فهي لا تُقدر بمال.

ما جعل «حياة» تحزن على سوء ما فُهمت به، وأنها فقط كأي أم لا تتمنى لابنتها سوى السعادة، رفع عنها «عادل» حرج تبرير موقفها، فهو يعلم ذلك تمام العلم، لكنه أراد أن يوضح لها أكثر.



لم تنتظر «بتول» للغد حتى تخبر صديقتها «هناء». على الفور اتصلت عليها ونبأتها برفضها له حتى تبلغه إذا جاءها يسأل، ولكن هذا الرفض يكون بشكل لائق، وأنه لا يُرفض، والكثيرات يتمنينه، ولكن لا يوجد توافق بينه وبين «بتول».

في اليوم التالي مر «عمر» من أمام «هناء» دون أن ينادي أو يشير إليها، حتى فقط تراه، وإن كان هناك جديد ستنادي هي عليه، وبالفعل كما توقع، جاءت الإشارة هذه المرة منها، فتوجه إليها مبتسمًا، يسبقه تفاؤله، فإذا بالرد الذي لم يتوقعه، نعم لم يكن يتوقعه! فقد كان يرى في نفسه أنه العريس الكامل الذي لا يُرفض، وأنه محط أنظار الجميع، لم يتوقع أن يُرفض، وكما قالت له أمه، لن يصدقوا أنفسهم عندما تذهب إليهم، سيوافقون دون شروط؛ طمعًا فيما عندنا.

رفض كسر تفاخرًا كان دائمًا ما يلازمه، وأوقفه على حقيقة واحدة، أن المال وحسن الهيئة ليس كل شيء.

عاد إلى بيته منكسرًا حزينًا، لا يرغب في أن يحدث أحدًا، حتى دخل عليه والده حجرته يسأله عن سبب ذلك، نبأه برفض عائلة «بتول» وهو ما استغربه والده بشدة، كيف ذلك؟! فقد كان يرى أنه على الرغم من ثقافة وفهم والد «بتول» إلا أنه في النهاية سيوافق، ولن يحكم إلا بعقله أن ابنته ستكون في معيشة راقية ومرفهة، كونهم يرفضون هذا يقول إن هذه العائلة مختلفة وغريبة في تفكيرها!

مرت أيام وهو على هذه الحالة، إحباط وحزن ويأس، لم يحزن أبدًا من قبل على فراق أو خسارة أية فتاة، هنا تذكر «نزار» عندما قال: «علمني حبك أن أحزن».



فكانت أسئلة في نفسه تبحث عن أجوبة!

أهذا هو الحب الذي لطالما تحدثت عنه دون أن أشعر به، الذي حال بيني وبين أن أعترف وأكتفي بمجرد النظر من مكان بعيد، وأن أخشى أن أتلعثم أمامها وأنا صاحب اللسان الفصيح بين الفتيات؟!

لم يستطع تجاوز «بتول» ولا يستطيع الوصول إليها، سؤال أخذ يتردد في أذنه طيلة هذه الأيام: لِمَ رفضتني؟! ماذا بي؟!

فكان قراره الجريء الذي أتاه بعد أيام من الحيرة والحزن أن يذهب إليها نفسها دون وسيط كما حدثها في بيتها. وبالفعل ذهب إليها دون تردد، فلم يشعر من كثرة حديث نفسه فيمَ سيتكلم معها، وكيف سيقابلها؟! لم يشعر بنفسه إلا وهو أمامها، وعليه أن يتحدث. تتعتع في حديثه حين وجد نفسه أمامها، فما كان إلا أن طلب حديثها على انفراد، وهو ما وجدت نفسها تُساق إليه دون رفض منها من مفاجأة طلبه.

تباعدا عن الجمع في زاوية خالية، فكان أول ما نطق به:

ـ دكتورة «بتول» معذرة إن كنت فرضت نفسي عليكِ، ولكن لماذا رفضتِني؟ أنا لم أتعلق بفتاة من قبل مثل تعلقي بكِ، وجدت فيكِ اختلافًا عن الجميع، لم أكن أتخيل أن أبوح بهذا لفتاة بعد أن رفضتني، لم أتخيل أن أذهب إلى فتاة أستجدي منها أن توافق عليَّ، أنا لا أرغمك، ولكن أريد أن أعرف لماذا! أعلم أنه لم يكن لديكِ أي مشاعر تجاهي؛ لأنكِ لم تعرفيني من قبل، كنت أتمنى حتى قبول الخِطبة، وإن لم يكن توافق بيننا نفترق.

سكتت «بتول» لا تدري بأي شيء ترد! لكن حملها على أن تتكلم هي نظرته المنكسرة إليها وصدق حديثه.



فكان ردها:

ـ لم أرفضك لشيء معيب فيك، ولكن أفكارنا لم تتوافق، لم أرَ فيك الجدية التي تربيت عليها من والدي، غايتك الموضة وأخبار كرة القدم والفنانون، لا طموح لديك، كل ما تريده يتحقق بفضل والديك، وأنا أريد من يكون سندًا لي وعونًا أعتمد عليه من لا أكون بالنسبة له مجرد نشوة أرادها فاشتراها بماله، للعلم أنا مثلك شابة، أشاهد الأفلام، وأسمع الأغاني وأتزين، لكن ذلك عندي شيء من الرفاهية المؤقتة حتى لا يصيبني الملل من الحياة، لكن أن تكون الحياة كلها في ذلك وهي جل الاهتمام، فهذا نوع من العبث، لا بد أن يكون لنا هدف نحيا من أجله.

ـ لم أعلم قبل هذا اليوم، بل تلك الساعة، أن ثمة شيء ينقصني، كلامك أفادني وإن لم يحدث أي تقارب بيننا، أنتِ محقة في كل ما ذكرتِه، وسأعمل على تغيير نفسي، إن لم يكن من أجلك فمن أجل أن أكون راضيًا عن نفسي، ولكن رغم كل جوانب ضعفي التي ذكرتِها، إلا أن هناك جانبًا قويًّا لا ضعف فيه ولا لبس، هو أني لا أريد سواكِ، وأرى أن ذلك أساس قوي للبناء عليه، أتمنى أن تعيدي النظر والتفكير مرة أخرى، وقبل أن أغادر، أود أن أخبرك بشيء، إن إعجابي الأول بكِ كان بالفعل من أجل جمالك فقط، أما الآن، فوجدتُ فيكِ أيضًا الفكر والشخص المختلف، الذي أقنعني بالتغيير، وأود أن يكون ذلك التغيير لكِ.

انصرف من أمامها سريعًا تاركًا داخلها ترددًا وحيرة وحالة من الذهول! إنها تكلمت وبثبات أمامه، لكن كلامه يحوي الكثير من التغيير والضعف.

قصت ما جرى بينهما لصديقتها «هناء» والتي رأت في ذلك إيجابية



منه وحرصًا كبيرًا عليها، ودعتها بأن تحكي لوالدها وتعرف رأيه، وهو ما كانت تنوي «بتول» فعله، وذلك أنها أيضًا تحدثت معه خارج البيت، فلا بد من علم الوالد.

حدثت والدها بما حدث فور عودتها، وكان كلامه متوافقًا بشكل كبير مع ما قالته «هناء» عندما قال لها:

ـ أرى في ذلك الشاب الصدق، الرجل يمنعه كبرياؤه أحيانًا بأن يعود لفتاة رفضته، بل ويعترف بأن لديه جوانب ضعف، لا يفعل ذلك إلا محب عن قناعة وصدق، لا يتغير الإنسان إلا من أجل عزيز لديه، لم أرغمكِ على قرار من قبل دون قناعتك، ولكن إن أردتِ نصيحتي، أنا أرى فيه خيرًا بعد حديثه الأخير إليكِ، والأيام ستثبت صحة ما يقول. خذي وقتكِ وقرري وأنا معك.

مرت ثلاثة أيام و«بتول» في حيرة تتملكها، لكنها كلما تذكرت حديثها الأخير ونبرته الراجية، شعرت بشيء من الصدق، بل وشيء بداخلها يجنح نحو القبول، فأرادت أن تحسم ذلك، فهرعت إلى ركعتي استخارة، كانت بعدهما أكثر قبولًا واطمئنانًا، بل وقررت ما هو أكثر من ذلك، أن تنبئه هي بنفسها أنه يستطيع أن يقابل والدها مرة أخرى. كان قرارها هذا سببه أنه لم يكابر في المرة الثانية أن يذهب إليها ويطلب منها أن تفكر فيه للمرة الثانية، وتجاوز كبرياءه وأنه رُفض بالمرة الأولى، فأرادت أن تضغط هي أيضًا على نفسها، وذلك أنه ليس ثمة كرامة أو كبرياء يكون بين اثنين من المفترض أنهما يسعيان إلى مشروع زواج بينهما.

في يوم لم يتوقع «عمر» أن يكون بمثل هذه البشرى السارة، بل وتُزف إليه من «بتول». فرحة ما بعدها فرحة، وسعادة لا تضاهيها سعادة. كان



ذلك حاله في هذا اليوم وإن كان حديث «بتول» له مقتضبًا ومتحفظًا وسريعًا، لكنه أتى بما كان يتمنى وينتظر.

على عجل عاد إلى بيته على غير موعده، مكتسيًا وجهه بسعادة بازغة، ما أن أخبر والديه إلا وكان المأزق الذي كان من أمه، والتي دائمًا ما تفرض سوء النية على حسنها، فقالت له:

ـ الآن عرفت سبب رفضهم الأول، كانت لعبة حتى يعودوا مرة أخرى فيزول عنهم أنهم يطمعون فيما عندنا.

ذلك ما لم يتقبله «عمر» الذي احتد على والدته لأول مرة:

ـ لا يا أمي، أنا من عدت إليها مرة أخرى أطلب منها أن تعدل عن قرارها، أنا من ذهبت إليها؛ لأني تمنيتها بصدق.

هنالك تدخل الوالد قائلًا:

ـ على بركة الله، هم أناس طيبون، وابنتهم كذلك.

ثم طالب الأم بأن تكف عن تكدير فرحة ابنها، وأنه هو من سيتزوج، وهو صاحب الاختيار، وهو ما تقبلته الوالدة على مضض مكرهة بوجه عابس مكفهر.

تحدد الموعد على عجل، وفي أجواء بسيطة تمت الخطبة، على شرط من الأب بأنه لن يسمح بأن يكون يوم الزواج كذلك، وأنه نزل على رأي «عادل» في أن تكون الخطبة بسيطة ويكون يوم الزواج له.



(١٤)

«أحبك... كم ظُلمت هذه الكلمة حينما أصبحت مطية للتلاعب، حين فُرغت من معناها، حينما قيلت دون تدبر وسُمعت دون إنصات، حينما خرجت دون أن ينبض القلب بها، وحينما سُمعت دون أن تَطرُب الأذن لها!»





بدأت حرارة مشاعر «عمر» المتدفقة تذيب جليد الخجل بينهما مع توالي زيارته لبيت «بتول» وبدأ التواصل بينهما يمتد طرفاه، وبدأت تيارات الحديث بينهما تتبادل.

شعور غريب ما زال يسيطر على «عمر» رغم مرور شهر على الخطبة، هو تلعثمه بجوار «بتول» ويذهب عنه كل ما كان يستعد لقوله في ليلة سيكون صباحها أو نهارها لقاءهما في الكلية أو زيارته لها!

يتحاشى أن يكتب إليها في رسائله على «الموبايل» كلمة الحب بكل مشتقاتها، على الرغم من شعوره الجم بها، كان يستعيض عنها بعزيزتي، جميلتي... إلخ، ما أصعب أن تبوح بالحب عندما تحب بالفعل، وما أسهل أن تقال عبثًا!

بدأ يدب في دواخل «بتول» شعور لم تشعره من قبل، أن أحدًا يحاوطها دومًا في كل وقت وأي مكان، يحاوطها برسائله، رناته، اتصالاته، وحتى على مواقع التواصل الاجتماعي، أحدًا ينافس أباها في تدليلها بعد علمه بمدى حب «بتول» لوالدها؛ الأمر الذي أسر «عادل» فلطالما تمنى ذلك السند الذي يكون لها من بعده، شعور تجاوز الأنانية التي تكون في بعض الآباء.



دون أن تطلب منه «بتول» ترك عمر كل صداقاته النسائية؛ وأنها لم تكن صداقات بريئة، ابتعد طوعًا عما يثير غيرتها وشكها، أبى أن تُكسر من فعله، حتى نظراته للبنات من حوله التي كان يلقيها هنا وهناك، غض طرفه عنها، فقد امتلأت عيناه بحبيبته، فلا يرى غيرها من النساء.

في ليلة من لياليهما التي يربطهما فيها خيط الرسائل المتبادلة حتى نوم أحدهما. كتب «عمر» إلى «بتول» أعظم رسائله وهو يستحضر صورتها أمامه وابتسامتها، فيبتسم من تذكره لها، وهو يتذكر بعض كلماتها التي دائمًا ما تقولها ويرددها بطريقتها، وهو يتذكر يومًا من أيام الكلية مشمسًا شديد الحر، فيرى وجهها وقد احمر من الحرارة وكأنها زينت خديها بمسحوق للتجميل، كتب لها وهو يتذوقها لأول مرة وهو يشعر بكل حرف فيها، يشعر بضمة شفتيه وهو يقول «أُ» وبتنهيدة حلقه وهو ينطق «ح» وبقرع شفتيه فى قلبه عندما تتطابقان بحرف «ب» وبانطلاقة تنهيدته عندما يفتح شفتيه بـ «ك» كي يطلق سراحها إلى حبيبته.

كتب لها «أحبك». لأول مرة استجابت كل أطرافه لهذه الكلمة وخشعت جوارحه استماعًا لها.

وصلت حارة لتوها إلى «بتول» فارتجف جسدها لحرارتها، لم تسمعها من قبل، ولم تكن مستهلكة عندها، غزت كل دواخلها وأوصالها، فما أجملها من كلمة عندما تخرج بعد طول خجل لأول مرة، وما أجمله من شعور حين تهدى لك لأول مرة! فكم ظُلمت هذه الكلمة حينما أصبحت مطية للتلاعب، حين فُرغت من معناها، حينما قيلت دون تدبر وسُمعت دون إنصات، حينما خرجت دون أن ينبض القلب بها، وحينما سُمعت دون أن تطرب الأذن لها!



أحب «عمر» «بتول» نفسها و«بتول» حديثها، و«بتول» ملابسها، و«بتول» ضعفها، و«بتول» حياءها، و«بتول» خجلها، و«بتول» بساطتها، و«بتول» ببعض كلماتها الريفية. أحب «عمر» بتول لـ«بتول».

ودون تنظير منها أو عتاب أو حث على التغيير، وجدت من «عمر» ما كانت تتمنى وتريد، وحده الحب، أكبر دافع للتغيير، ويظهر ذلك بالأفعال التلقائية، فكان «عمر» المتحمل للمسئولية، وهو يأبى إلا أن يوصلها إلى بيتها، ويسافر معها في الأيام التي تخرج من محاضراتها متأخرة، و«عمر» الرجل الذي يأبى أن تُكسر حبيبته من فعل له!

هنالك كان إعلان «بتول» عن حبها له، والذي كان على صورة له لديها تجعلها دائمًا في حافظتها، كتبت على ظهرها «أحبك» أو على ورقة مدسوسة في قلب دفتر خطت عليها بقلمها الأحمر اسمه وبجواره «أحبك» وظهر ذلك من احتفاظها بسوليفان هداياه المعطرة بعطره، تحت مراتب سريرها، ويظهر في مرورها الدائم على رسائله القديمة في جوالها وهي تتذكر مع كل رسالة وقتها ومناسبتها ويومها وحالها عندما قرأتها، يمنعها خجلها أن تبوح بذلك حديثًا أو كتابة، لكنها أفصحت عنه آلاف المرات في أفعالها، وعدم نومها إلا عندما تطمئن على حاله.





(١٥)

«عزاء صبرهم الجنة، هي فقط أمل الفقراء في الراحة»





غادرت الطيور بيوتها كعادتها مع بواكير الصباح، تغدو بطانًا وتروح خماصًا، على باب الله ترجو من فضله.

غادر «عادل» وترك شيئًا من ندى شفتيه على جبهتي حبيبتيه، وهو يتمتم بأدعية «أن يرزقه الله من أجلهما وألا يخيب مسعاه وأن يقوى ظهره، وأن يخفف من حمله، وأن يحفظهما».

و»زكريا» تارك زوجته وحدها مصطحبًا فتاه يسعيان إلى الرزق، لسان حالهم جميعًا: متى تكون الراحة؟ أم سيأتيهم التقاعد عنوة كالحاج «صابر» وتنتهي صلاحيتهم لتلك المهمة الشاقة كخيل الحكومة؟

عمل يعتمد على القوة، والقوة مآلها إلى الضعف، والعزم الشديد إلى اللين، والصحة إلى المرض، يكون في نهاية التفكير عزاء صبرهم الجنة، هي فقط أمل الفقراء في الراحة، وكما تم إقناعهم بحسن أو بسوء النية أن الدنيا فقط دار شقاء، مسلمات لا تكون إلا في قواميس الكادحين، إن بحثنا عنها من الممكن أن نكتشف أنها ليست من دين الله، بل دين أصحاب السلطات الذين ارتضوه للفقراء ولفقوه بهتانًا للأديان السماوية.

ككل صباح عند توجههم في طريقهم المعتاد، لا يتحدثون إلى بعضهم



البعض إلا قليلًا، يكون حديثهم الثرثار في طريق عودتهم، يتحدثون عن العمل، واليوم كيف مر، وكرم أم بخل من كانوا يعملون لديهم؟ أما في الصباح سيماهم الصمت، لعل كل منهم يفكر في أسرته، يتطلع إلى يوم عمل خفيف ومجزٍ، أو أنهم يسرحون بأنظارهم إلى تفاصيل قريتهم البسيطة والتي لا يعودون إليها إلا مع ستائر الليل التي تطمس عنهم كل الملامح.

حياة روتينية مملة، لكن ليس لديهم رفاهية التعديل أو الاختيار، يعودون من عملهم سريعًا، يلذون إلى بيوتهم ليمكثوا قليلًا مع ذويهم ثم إلى مضاجعهم ليستيقظوا باكرًا إلى العمل، أصبح العمل هو الغاية وليس الوسيلة التي بها يحيون، فكُرست حياتهم للعمل.

وفي مكان جلوسهم المعتاد مع أقرانهم أصدقاء الكفاح، حطوا رحالهم، بالطبع بعد ملء خزان الجسد بوقوده من الفول.

ينتظرون مع غيرهم الفرج الذي يأتي مع الرجال القادمين يبحثون عن عمال الفاعل والعتالة، وبعد مساجلات وفصال روتيني معتاد يكون الاتفاق.

أقبل عليهم رجل ذو هيبة، اختارهم دون الجميع، كما يفسرونه هم بالرزق الذي يختار صاحبه، وكان بالفعل يحمل لهم عرضًا مغريًا، وإن كان على غير عملهم المعتاد في الهدم والتكسير، كان عرضه بيومية ضعف ما يأخذونه في الغالب، مائتا جنيه للفرد، وبعدد ساعات عمل أقل، وعلاوة على ذلك أنها ستستمر لأربعة أيام، سيعملون داخل شركة كبيرة للبترول معه كمقاول أنفار على جهاز اسمه «الرمالة» يضخون به الرمال على الجمالونات الحديدية لتلك الشركة لإزالة الصدأ من عليها، شرح لهم



الأمر وأنه لا يحتاج إلى خبرة، بمجرد ما يرونه على الطبيعة مرة سيعملون عليه، ذلل لهم كل العقبات ويسرها لهم، حتى تلك العقبة التي كادت تضيع الفرصة من أيديهم، وهي أنه يحتاج لفردين فقط، لكنه كان على عجلة من أمره، فوافق أن يكون «يحيى» معهما، على أن تكون يوميته مائة جنيه، وهو من سيحضر لهما الرمال للجهاز وسيصعدان هما على الرافعة لجلاء الصدأ.

وفي طريقهم للذهاب، كان سؤال «عادل» الذي لح على ذهنه:

ـ أوليس لهذه الشركة الكبيرة عمال وموظفون يقومون بتلك الأعمال؟

كان رده:

ـ لديها الكثير من العمال لكن تستطيع القول إن هذه الأعمال تُعطى لمقاول ويأتي هو بالأنفار.

ـ لماذا..هل كل العمال مشغولون فى عمل آخر؟

ـ لا، بالعكس، بل أغلبهم لا عمل لهم ومرتباتهم مرتفعة للغاية، يرفضون القيام بمثل هذه الأعمال الشاقة، بدعوى عدم التخصص، ومعظم عمال البترول، إلا القليل، بالمحسوبية والوساطة، فهل تريد أن يعمل أحدهم على رمالة؟!

هنا قاطعهم «زكريا» ببساطة وتلقائية:

ـ هذا رزقنا لكي نعمل نحن، وكل واحد وله رزقه.

لم يعجبه «عادل» كالعادة رد أخيه، فتدخل قائلًا:

ـ كيف يكون هذا وهم يتقاضون آلاف الجنيهات، ولهم حوافز ومعاشات



وتأمينات، ونذهب لنعمل عملهم، والرجل منا عندما يوعك ليس له دية؟!

هنا قاطعهم «صالح» المقاول مازحًا:

ـ لا.. بهذا سندخل في السياسة، المفروض كثير، لكن ما يُفعل منه قليل القليل!

استوعبوا العمل سريعًا كما نبأهم «المقاول» وبدأو في العمل وبالهم يتوق إلى الساعة الثالثة، موعد انتهاء عملهم مع موظفي الشركة ليتاقضوا يوميتهم المجزية.

مر أكثر الوقت ولم يتبق سوى نصف ساعة فقط، وعلى الرغم من أن العمل يبدو خفيفًا، إلا أنه محاط بالمخاطر، فهم يعلون عن الأرض بحوالي أربعة طوابق، وهذا ما جعلهم يشعرون بثقل الوقت، فكل دقيقة تمر نجاة.

لكن القدر أبى أن تكتمل سعادتهم وأن تمر النصف ساعة الأخيرة كما مرت الساعات المنقضية ليعودوا إلى بيوتهم في ساعة متقدمة عن ذي قبل.

الحذر لا ينجي من القدر، خاصة لو كان هذا الحذر يعتمد فقط على تركيز الفرد دون أى تحصين من أدوات السلامة المهنية.

وفي حين غفلة من «عادل» ربما كان ذهنه فيها بعيدًا عند «بتول» وأمها، يفكر بماذا سيدخل عليهما اليوم كي يفرحهما، خاصة وأن الراتب مجزٍ؟

في هذه الأثناء زلت قدمه عند أحد أطراف تلك السقالة البدائية على هذا المرتفع، فلم يستطع أن يحفظ توازنه، فخر ساقطًا شارد الفكر فيما



كان يفكر، أو ربما تغيرت وجهة تفكيره في هذه اللحظة يقول في نفسه: «هل لن أعود إلى البيت مرة أخرى؟ هل قبلتي الأخيرة على جبهة «بتول» وأمها هي آخر عهدي بهما؟!...

ما أصعبه من مشهد على ذلك الفتى وهو يراقب «عمه» يسقط على الأرض من أعلى ولا يستطيع حيلة! بل ما أشده من مشهد بعد أن رآه أمام عينيه مدرجًا بالدماء وهو الذي كان مصاحبًا لهما في الصباح وبحالة جيدة! كانت تلك المصيبة مخبأةً خلف فرصة لا تعوض ومائتي جنيه لم تلمسها يديه، وساعات قليلة في العمل كان لا يدري أنها من الممكن أن يكون المقصد منها ساعاته القليلة في الدنيا، كان يخشى الوعكة المقعدة عن العمل، لا يتصور أن تخونه خبرته ومهارته، ويكون العمل نفسه هو مقعده، وربما مغيبه عن الحياة!

اجتمع حوله الكثير من الموظفين الذين كانوا يستعدون لمغادرة الشركة يرمقونه بنظرة شفقة من هو على مشارف مغادرة الحياة.

و»زكريا» يصيح ويبكي كالطفل طالبًا سيارة للإسعاف أو أي شيء يقله، خاصة وأن عين «عادل» تحدق فيه، وصدره يرتفع ويهبط بأنفاسه، تؤكد أنه ما زال على قيد الحياة.

نظرة «عادل» إلى أخيه تحمل رسائل عاجز لسانه عن البوح بها، نظرة تستودعه «بتول» وأمها، أو أنه يتملى من وجه أخيه الذي رافقه طوال عمره، والذي كان يدري أنه لن يفارقه إلا بموت، أفهذا هو الموت وهذه لحظة الفراق، أم ما زال في العمر بقية من شقاء؟

انتقلوا به إلى المستشفى بسيارة من سيارات الشركة، على الفور دخل إلى العناية المركزة، فما زال القلب ينبض، وما هي إلا نصف ساعة حتى



جاء الخبر إلى «زكريا ويحيى وصالح»، أن «عادل» قد رُفعت روحه إلى بارئها، ورُفع معها العناء الذي كان يتكبده طوال حياته.

ماتت النفس التي تخشى على ذريتها، والنفس المطالبة بالعمل من أجلهم، والنفس التى كانت تشتهي، والنفس التي كانت تتألم، فما عاد للألم وقر يسكنه، ولا للشقاء نفس تتحمله.

توشحت قرية «أشليمة» بالسواد، عندما أطبق الغروب عليها دفتيه، ولم يعد «عادل» ورفاقه إلى هذه الساعة. نعم هو نفس موعد عودتهم كل يوم لا يتغير، فقط كان من المفترض أن يعودوا اليوم متقدمين ببضع ساعات، الآن لن يعود معهم «عادل» إلى الأبد.

ما أوجس ذويهم خيفة ليس موعد تأخرهم، فهم لم يتأخروا عن سابق، بل هو غلق هواتفهم جميعًا ولا أحد يرد، هو القرار الذي اتخذاه «زكريا ويحيى» حتى لا يفجعا من هم في البيت؛ ظنًّا منهما أن «عادل» قد يُلحق في المستشفى.

عاد «زكريا ويحيى» منكسين رؤوسهما كأنهما أعجاز نخل خاوية، مثخنين من الحسرة والفراق، في قلبيهما لظى، وعلى عينهما غشاوة من دموع، عادا وفي أيديهما ما تبقى من أثر «عادل». ملابسه الملطخة بدمائه، قد تركوه وحيدًا في ثلاجة حفظ الموتى، أول يوم يبيته خارج داره، بل لن يعود إلى داره إلى الأبد، عادا وقد تجمع كل أهالى القرية عند بيت «عادل وزكريا» عندما زاد سؤال ذويهم عليهم عند أصحابهما في تلك المهنة، عل أحدًا قد رآهم، اجتمع الكل يبحث ويسأل ويحاول الاتصال، فمن في أشليمة لا يعرف «عادل»؟ الكل يعرفه، بل الكل يحبه.

عندما كانت المثالية دربًا من دروب الخيال في هذه الحياة، كان لا بد أن



يكون وجود «عادل» غير متسق ولا مقبول، ما كان يليق لهذه الحياة وما كانت الحياة يستهويها وجوده!

ليلة فُجعت فيها قرية «أشليمة» في أعز شبابها، فما من بيت إلا ولـ«عادل» فيه بواكٍ، هذا حال القرية، فكيف بحال قريته وجنته الصغيرة؟! بل كيف بحال زهرته البتول وأمها حياته وحياتها؟!

كيف بحالهما وهما ينتظرانه وإذا بصرة داخلها ملابسه ملطخة بالدماء فقط هي من عادت منه؟!

«بتول» قد فقدت نطقها وتخشبت وانقض جسدها أرضًا من هول ما سمعت! فقد فقدت كل شيء، صوت البيت الحنون قد سكت، من يجتمعان على ندائه على مائدة الطعام قد لبى نداء ربه، من ينتظران عودته كل يوم لتعود للبيت حياته ونوره قد ذهب بلا عودة.

«حياة» فارقتها الحياة وهى تندب الأرض على رفيق حياتها، على من يسكن أوصالها وكل ركن في هذا البيت، على من وضع معها كل قطعة في هذا المنزل، على من كانت تقتسم معه الرغيف، وثمرة الفاكهة، والفرحة والحزن والراحة والكد.

مرت عليهما أيام من بعد أن وارى جسد «عادل» التراب، ومرور تلك الأيام لا يزيدهما إلا حسرة، عندما يأتي موعد الغداء ويظل موضع «عادل» فارغًا، عندها يتركان الطعام، عندما يأتي المساء، ينتظران أن يقرع عليهما الباب، فلا يأتي، عندما يأتي الليل ويفقدان حديثه وسمره معهما، في كل ركن في البيت يتذكرانه، هنا كان يصلي، هنا كان يجلس..

كان في هذه الأيام لا يغيب عنهما «زكريا وأمل ويحيى». تكفل بهما



«زكريا» كلما دخل عليهما وجدهما لا يريدان شيئًا من متاع الدنيا، يتعففان بما تركه «عادل» وهو يعلم أنه بسيط، كانا يرفضان تلك الأموال التي جاء بها من المقاول، كانا يرونها منغمسة بدماء «عادل».

تلك الأموال التي تعهد بها المقاول مع «زكريا» لأسرة «عادل» والتي من أجلها شهد «زكريا» أمام النيابة أن المقاول وفر أدوات الأمن الصناعي والحماية، لكن «عادل» أهمل فيها، تلك الشهادة التي تؤرقه دومًا، لكنه الحل الذي اهتدى إليه من مجلس رجال القرية مع المقاول، فكان الحكم بأن يتعهد المقاول بدفع دية لأهل «عادل» وقدرها عشرون ألف جنيه، تكون في حساب ابنته، ومعاش شهرى لهما ثمانمائة جنيه، فوافق على تلك الشهادة كي يحفظ حقوق «بتول» وأمها، فماذا سيناله بسجن المقاول لإهماله في أدوات التأمين والسلامة المهنية وهو أيضًا لم يتعمد القتل أبدًا؟!



(١٦)

«لا تستشرفي حزنًا قبل موعده، ولا ليلًا في وضح النهار، لا تخشي أن تزول فرحة حتى تزول»





لا يكون القدر إلا بقدر التحمل، أو قد جعل الله له معينات تحمله...

وكأن «عمر» على موعد مع القدر، أو عهد مع والدها أن يخطبها قبل رحيله بثلاثة أشهر، حتى يتسلم زمام رعايتها ويكون لها الحبيب والأب والرفيق، وإن كان ثمة فراغ خلَّفه والدها لن يسده أحد بعده، لكن ما لا يُدرك كله لا يُترك جله، وكأن «عادل» بقبول خطبة ابنته كان يقبل من يحمل أمانته من بعده.

فكان «عمر» نعم حامل الأمانة، ونعم الرجل الذي يظهر معدنه عند الشدائد! فكان قدر الله الطيب الذي حصنه الله لها لأيام عجاف، فبُعيد رحيل «والدها» وبالأخص في الأسبوع الأول، كان يزورها كل يوم، يجلس طيلة النهار معها وأمها وعمها، يقضي حوائجها، يخفف عن «بتول»، يشدد من أزرها وعضدها، كانت مهمته شديدة الصعوبة أن يخرجها مما هي عليه، فمن رحل كان لها كل شيء.

أخذت تتعافى قليلًا من صدمتها، وبدأت محاولات «عمر» تؤتي بعض ثمارها وتنظر في بعض الورقات التي أتى لها بها من كليتها من بعض زميلاتها وبالأخص من «هناء» التي كان يتابع معها، فلم يتبق على موعد امتحاناتها النهائية للسنة الدراسية سوى أسبوعين وهي منقطعة عن دراستها قرابة الشهر حزنًا وألمًا على والدها.



كانت تستمد قدرتها على مواصلة المذاكرة في هذه الأيام الصعبة، من أن الكلية أحد أهم أمنيات والدها، وعلى الرغم من ظرفها القاسي، إلا أنها كانت على العهد، وتجاوزت الامتحانات، بل السنة الدراسية كلها بتقدير جيد جدًّا، وكان نجاحها إيذانًا بمغادرتها كلية العلوم، الكلية التي منها ارتبطت بأهم هدايا الحياة لها، وأيضًا صديقتها «هناء» أول من عرفت داخل جدران الكلية وسببها لكل خير.

في هذه الأثناء، تأثرت «بتول» بمغادرتها للكلية، وتسللت منها دمعتان خفيفتان، باتت تخشى من الفراق ومغادرة الأحبة، مع أن «عمر» أصبح خطيبها، ولن تتأثر علاقتهما بذهابها لكلية أخرى، و«هناء» صديقتها، وأصبحتا تتزاوران بعيدًا عن الكلية، إلا أن للمكان أيضًا تعلقًا وسيكون له وحشة، فمكان لقائنا بالأحبة له في نفوسنا شوق وحنين.

عندها شعرت بأنها تود أن تأخذ على «عمر» مواثيق وتطمئن على عهوده، فبصوت مثقل بالخوف من المستقبل قالت:

ـ «عمر» أخشى أن نفترق.

ـ لن يفرقنا سوى الموت، ما دمت حيًّا فلن تكوني لسواي، ولن أكون لسواك.

ـ تحت أي سبب وظرف ؟..

ـ نعم تحت أي سبب وظرف، هل ثمة شك لديكِ تجاهي؟

ـ لا.. أشك في الحياة وفجعاتها، أشك في الزمن وتغيره، أشك في الظروف، لا أستطيع أن أتخيل مجرد التخيل أن تفارقني، أصبحت أملي وعوني وسندي بعد أبي، لن أتحمل فاجعة أخرى.



ـ لن يكون فراق مهما كانت الظروف، لن تبرحي من داخلي إلا إذا خرجت روحى، وعندها أيضًا سأنتظرك حورية في الجنة.

ـ كم أتمنى ذلك! لكن لا تتحمل ما لا تطيق ولا تتعاهد بما لا تدري.

ـ لا، بل أدري، إلا إن كان شك منك تجاهي.

ـ ليس شكًّا، بل خوفًا على فرحة ألا تكتمل، وحياة لا تُؤمن دائمًا، عندما تعطي تأخذ من عطاياها، وأحيانًا بأكثر مما تعطي.

ـ دعكِ من تحول الحياة، لا تستشرفي حزنًا قبل موعده، ولا ليلًا في وضح النهار، لا تخشي أن تزول فرحة حتى تزول، وفرحتنا لن تزول، استبشري خيرًا.

بدأت تعود «بتول» لنفسها شيئًا فشيئًا، يسكن حزنها، حتى يأتي ما يثيره من موقف مماثل كان فيه والدها بجوارها وتحتاجه الآن، أو عندما تذهب بخيالها لأيام كان فيها بجانبها.

أوشك العام الأول أن ينقضي من عامي الخطبة المتفق عليهما، عادت لنضارتها أوراق زهرة «بتول».

وأوشك عام دراستها الثاني أن ينتهي في كلية «الصيدلة»، و«التيرم» الأخير «لعمر» كي يتم مرحلة دراسته الجامعية في كلية «العلوم».

تقلصت مظاهر الحزن من هيئتها لتكتفي بالركود في داخلها، لكن ما زال بعض من مخلفات تلك المرحلة على جسدها، تلك البقع والالتهابات الجلدية على ظهرها وبطنها، والتي زادت حدتها، على عكس أحزانها، على الرغم أن الأطباء آنذاك قد شخصوها بأنها نتيجة حالتها النفسية من الحزن وحالة الانهيار العصبي التي كانت تمر بها.



لم تفلح المرطبات والدهانات التي داومت عليها والتي تناوبتها، ما جعل «عمر» يدعوها لزيارة طبيب كبير من أطباء الإسكندرية المتخصصين في الجلدية، وهو ما وافقت عليه «بتول» بغية التخلص من ذلك المرض الذي ألهب جلدها والذي تحزم عليها أعلى خصرها.

بالفعل حجز لها «عمر» عند طبيب مشهور حذاقته، ذهب معها يرافقها حتى يطمئنا سويًّا.

مع شهرة وصيت هذا الطبيب بالمهارة، إلا أنه فعل أمرًا استغرباه بشدة، فقد كتب لها بعض الأدوية المسكنة وحولها إلى طبيب آخر تقريبًا بنفس تخصصه، وكان سببه في ذلك، كما برر لهما عند سؤالهما، أنه يستشيره في أمر ما هو أكثر تخصصًا فيه، وعلى كل حال لا تقلقا الأمر بخير.

كانا يحاولان أن لا يقلقا كما طلب منهما قولًا، لكن فعله جد مقلق!

أعطاهما كارتًا للطبيب الآخر حتى يدخلا به، وحدد لهما يوم الثلاثاء المقبل لزيارتهما له، ربما ذلك لشيء هو يعلمه أو أنه يستقبل حالات معينة فقط في ذلك اليوم، الموعد الذي حاول «عمر» تغييره بتقديمه أو تأخيره يومًا، وهو ما جاء بالفشل، فهذا الثلاثاء يصادف عنده امتحانين عمليين مهمين للغاية، وهو ما رفعت به بتول عنه الحرج، وأنها ستكون بالفعل هذا اليوم في الإسكندرية لمحاضرات، وسيتواصلان تليفونيًّا ليطمئن كل منهما على الآخر، أو ليوصلها «عمر» إن كان قد أنهى امتحاناته والتي هي من بعد العصر في فترة مسائية.



(١٧)

«أتت به قومها تحمله»





دخل قطار الأيام السريع محطة الثلاثاء المنتظرة؛ حيث موعد الطبيب الذي ستذهب إليه «بتول» بكارت الإحالة من الطبيب السابق.

ما زالت بعض الأسئلة المحيرة تدور في رأسها، مع شعور بالقلق المتنامي طيلة الأسبوع حتى بلغ ذروته في اليوم الموعود.

وهي أسئلة مشروعة وباعثة للقلق، فكيف لطبيب كبير أستاذ في الجامعة يرسل حالة من حالاته لطبيب آخر في نفس تخصصه؟! والأعجب من ذلك أنه ترك له التشخيص ولم يكتب لها أية علاجات ولو مبدأية!

تهيأت ظروفها للذهاب إلى الطبيب؛ حيث ذهابها للإسكندرية لحضور المحاضرة التي تسبق موعد الطبيب بساعتين، وستقضي فارق الوقت في كافيه الجامعة؛ ما جعل والدتها تقتنع بوجهة نظر «بتول» في عدم اصطحابها معها إلى الطبيب، وهو ما أصرت عليه بعد علمها أن «عمر» لن يكون معها في هذا الموعد، لامتحانه العملي.

انقباض في القلب وخوف لا يُعلم مصدره لازمها من بداية يومها وقطع عنها انتباهها أثناء المحاضرة، تفكر في مجهول ربما يحزنها!

أتاها ذلك من مقدمات تدعو للريبة!

أخيرًا أشارت عقارب الساعة نحو الخامسة، الموعد المنتظر لتبدأ التحرك



نحو عيادة الطبيب التي تبعد عنها حوالي نصف ساعة.

وصلت العيادة تتسارع أنفاسها مع دقات القلب، المكان هادئ جدًّا، لا يوجد إلا شخصان ينتظران موعد دخولهما يبدو التوتر على ملامحهما.

ومكتب مقابل باب الدخول عليه موظفتا استقبال.

توجهت إليهما فور دخولها، لم تتفوه بشيء، فقط تمد يدها إلى إحداهما بالكارت الموقع من الطبيب الآخر.

وكأنه أمر معتاد في العيادة، أخذت منها الكارت دون أي تعقيب، سوى أنها أشارت لبتول على مقاعد الاستراحة وقالت لها:

ـ استريحي هنا حتى يأتي دورك بالدخول، مما زادها قلقًا؛ حيث لم تطلب منها مقابل الكشف، ولم تأخذ منها أية بيانات سوى الاسم!

بعد حوالي عشر دقائق، وبعد خروج أحد الأشخاص من الحجرة المدون عليها بالإنجليزية Doctor نادت الموظفة على «بتول» لتدخل حتى قبل الشخصين الموجودين من قبل وكأنها أُخذت على غفلة، فقد انتظرت دورها بعد حالتين.

هرولت إلى الحجرة تسبقها أسئلتها وحاجتها للاطمئنان، فإذا بطبيب بشوش الوجه والطلعة، أصغر مما كانت تعتقد، استقام واقفًا بابتسامة عريضة:

ـ تفضلي يا بتول، ثم جلس على مقعده سائلًا:

منذ متى ظهرت هذه البقع الحمراء على جلدك؟

ـ من وقت بعيد، لكنها ازدادت حدة فى الآونة الأخيرة.



ـ هل تشعرين بأي شيء آخر؟

ـ نعم. أنا دائمة الإعياء، لا تفارقني نزلات البرد.

ـ سنقوم الآن بعمل تحليل بسيط بشكة بسيطة في إصبعكِ.

ـ تحليل! أي تحليل؟!

ـ تحليل بسيط.. لا عليكِ.

أحضر الطبيب جهاز تحليل بلاستيكيًّا سريعًا، يشبه تحليل الحمل المنزلي.

وأخرج الإبرة التي بداخله وتوجه بها نحو «بتول».

ضغط بإصبعه على إبهامها؛ فاحمر للتو من أثر الضغطة، ومن فوران دمها نتيجة خوفها.

نظر إليها ويدها ترتعش بين أصابعه وبنبرة هادئة:

ـ لا تخافي الأمر بسيط.

ثم باغتها بوخزة خفيفة على إصبعها، وقام بسحب تلك القطرات من الدم بأنبوبة رفيعة، وأخذ يقطر بها على ثقب الجهاز.

وضعه على رخامة بجواره، وجلس في المقعد المقابل لبتول بأمام مقعده.

أخذ يشغلها بجمع بعض البيانات منها عن الاسم بالكامل، محل السكن، وفي أي كلية تدرس، ويدون في ورقة بيده، وكأنه يكسر وقت دقائق الانتظار المحددة لظهور نتيجة التحليل، وهي غالبًا ما تكون من دقيقتين إلى أربع دقائق.



توجه إلى جهاز التحليل ينظر إليه، أمعن النظر فيه ثم أعطاها ظهره.

ليعطي نفسه الفرصة كي يستعد لمواجهتها ويخبرها بأفضل طريقة وأقلها وقعًا على قلبها، فالأمر جد خطير، فقد ظهر خط على علامة الموجب في تحليل فيرس HIV

«بتول» شاخص بصرها إلى الطبيب، تنتظر أن يدير وجهه ويخبرها بنتيجة التحليل.

كاد قلبها من فرط دقاته ينتفض من صدرها.

ـ ماذا رأى في التحليل؟ وأي تحليل هذا؟..

لم تتمكن من رؤية أسمه hiv بالخط الصغير فقد كان الطبيب يتعمد إخفاءه عنها بوضع إبهامه على الاسم علها تعرفه من دراستها فيزداد خوفها وقبل أن تهم هي بالقيام لسؤاله وقد نفد صبرها، استدار لها بوجه يتصنع الابتسام ليخفف من وطأة الخبر.

تبسمت في مقعدها عندما توجه إليها، جلس بجانبها، سألها سريعًا:

هل أنتِ متزوجة؟

لا.. ما نتيجة التحليل؟

لم يرد عليها، وسرح في حديث نفسه:

فتاة بتلك السمت الطيب، طالبة في كلية الصيدلة، يبدو عليها الصلاح، من أين أتى لها الإيدز؟!

وكأنه لا يعلم أنه من الممكن أن يأتي من أشياء لا علاقة لها بأي فعل قبيح، فقد يأتي من دم ملوث بالفيرس، أو من أم لجنينها، لكن لندرة تلك

الحالات تعجب لإصابتها! تدارك نفسه سريعًا من غفوته:

هل أُجريت لكِ عمليات من قبل أو نقل دم؟

- نعم يا دكتورعمليتين وأنا صغيرة وفى العملية الثانيه أخبرني اهلي انه اجري لى نقل دم.

أخبرني ماذا ظهر؟ أرجوك..

مهملًا للإجابة على سؤالها: في أي مشفى كانت تلك العمليات؟

- في مشفى مركز ايتاى وفى مشفى فى مركز دمنهور

أومأ برأسه وكأنه وجد ضالته، فقد وجد السبب الأرجح لانتقال الفيرس، إنه بالتأكيد دم ملوث عمليتين في مشفى ضعيفة الإمكانيات والتعقيم ربما فى تلك المراكز، قد صاحب إحداهما نقل دم،!.. ثم أردف سريعًا قبل أن تكرر سؤالها عن نتيجة التحليل:

أرى فيكِ الصلاح والرقي ومستوى تعليميًّا عاليًا ينم عن ثقافة عالية واستيعاب وفهم ما سأقوله لكِ.

اهدئي واستمعي إلى ما سأقوله بإنصات ولا تقاطعيني.

بتول بلهفة وارتباك:

- تفضل يا دكتور.

- إنتِ حاملة لفيرس HIV المسبب للإيدز.

- إيدز! أنا مصابة بالإيدز؟!

ما إن قالت هذه الجملة حتى انهمرت عيناها بالدموع، واحمر وجهها،



وارتعدت فرائصها، وتلجم لسانها، وأخذت أطرافها تنتفض بحركة لا إرادية.

أخذ الطبيب يهدئ من روعها حتى هدأت قليلًا، فناولها كوبًا من الماء كي تشرب، ما إن شربت حتى تناوله منها يشرب من نفس موضعها ليوصل برسالة ما.

ثم قال لها: أنتِ حاملة فقط للفيرس ولستِ حاملة لمرض الإيدز، فهو مرحلة أخيرة يصل إليها الإنسان إن لم يُعالج، وهذه مرحلة الإعياء الشديد.

وهناك الكثير من مرضى الإيدز الحاملون للفيرس ومتعايشون معه، مثله مثل السكر والأمراض المزمنة.

ـ الإيدز مثله مثل السكر يا دكتور؟! الإيدز ليس له علاج... الإيدز مرض الخزي والعار.

اختلط كلامها بالبكاء والنحيب واهتزاز أطرافها.

فأمسك الطبيب يدها التي كادت تتيبس وتتجمد، وأخذ يلينها حتى تعود الدماء إليها.

ونادى على إحدى الممرضات كي تأتي لمساعدته.

أخذتها الممرضة إلى سرير الكشف وهي بين إغماء واستفاقة، والطبيب يهدئ منها ويلين أطرافها، ثم طلب من الممرضة أن تحضر الحقنة المهدئة للأعصاب وللاسترخاء.

همّ أن يعطيها إياها، فأشارت إليه أن يتوقف، متمتمة أن منزلها بعيد والحقنة سترخي أعصابها ولن تستطيع العودة.



توقف الطبيب ثم قال لها:

حسنًا، ولكن أرجوكِ ساعديني ونفسك واسمعيني جيدًا.

أومأت له برأسها باستسلام وضعف.

ـ الإيدز يا بتول أو فيرس HIV بالفعل ليس له علاج يقضي عليه، لكن هناك علاج يحافظ على حالة جهاز المناعة حتى لا يتقدم الفيرس إلى مرحلة الإيدز.

هذه المرحلة تسمى متعايشي مرض الإيدز، وهم كثر، وعيادتي تستقبلهم كل يوم، فأنا مسئول ملف الإيدز في الإسكندرية التابع للأمم المتحدة.

أما بخصوص أنه مرض الخزي والعار، فهو مرض كأي مرض، نعم أغلب من يصابون به قد يكون لهم أفعال غير سوية، لكنه ينتقل أيضًا من الأم المصابة إلى جنينها، فما الذي فعله الجنين؟ هل له ذنب؟ وينتقل أيضًا عن طريق الدم الملوث أثناء العمليات، وهذا ما أظنه حدث معك، فأنتِ فوق مستوى الشبهات.

أعلم أن نظرة الناس للإيدز سيئة، لكن هذه اعتقادات خاطئة، وأنت صيدلانية متفتحة ومثقفة ومؤمنة بالله، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

نظرت إليه بعين قد كسرتها الحسرة واغرورقت بالدمع.

ـ يعلم الله كيف حالي، ومن أنا، أنا لم أقترف كبيرة في حياتي، ولم أتجرأ على عمل غير سوي.



قاطعها الطبيب:

ـ أعلم ذلك، لستِ بحاجة للدفاع عن نفسك.

ـ لكن الكل لا يعلم، ولن يظنوا بى خيرًا مثلك، أنا لا أخشى الموت، الموت أكثر شيء كنت أستعد له، والآن أتمناه بشدة، أنا أخشى نظراتهم لي وظنونهم عني، الإيدز مرض موصوم بكل قبيح، يوصم صاحبه أكثر مما يمرضه، إن استطعت التعايش مع الإيدز، لن أستطيع العيش مع الناس لأنني مريضة بالإيدز، متعايشو الإيدز موتى بين الناس.

نعم يا «بتول».

علاج الإيدز الذي لم يكتشف بعد هو تغيير نظرة الناس عن مريض الإيدز، فهم المشكلة الأكبر التي تواجه مريض الإيدز وليس المرض نفسه.

في هذه الأثناء اتصل عليها «عمر» يطمئن، فقد أنهى امتحانه، ردت عليه بصوت مختلط بالبكاء، وأخبرته بمكانها دون أن تخبره بشيء آخر.

خرجت من داخل حجرة الكشف تنتظر «عمر» الذي أتى إليها بعد عشرين دقيقة من اتصاله.

ما إن أتى إليه حتى استدعاه الطبيب، نبأه بما أصابها، واتفق معه على موعد آخر يأتيه فيه يشرح له أكثر عن المرض وما تحتاجه «بتول». خرج «عمر» من العيادة يجر نفسه جرًّا قد انقبض قلبه وأصبح صدره ضيقًا حرجًا، يحاول التماسك، ما إن اقترب من «بتول» حتى انفجرت عيناه بالبكاء وصدره يغلى كأزيز وهو يضم رأسها على كتفه وهى تنتحب بكاءً.

طويل طريق العودة بأجساد محملة بالحسرة، لا يستطيعان الحديث



طوال الطريق، فقط دموعهما فاضحة لهما، تستدعي شفقة كل من يراهما. من عليه أن يقويها أضعفته الصدمة وهزت كل كيانه.

وصلا إلى البيت، في حالة من الصدمة قد ألجمت لسانهما، فقط عيناهما تذرف كلماتها، والأم المسكينة تحاول معرفة السبب ولا أحد يرد، حتى صاحت «بتول» بنحيب: أنا مريضة بالإيدز يا أمي.. أنا مريضة بالإيدز. أخذت تردد حتى انهارت و«عمر» وأمها يحاولان استفاقتها..

بعد محاولات جاهدة ونزول عمها وابنه وزوجته هدأوا قليلًا من روعها..

عاد «عمر» بعد منتصف الليل بنفس محطمة وقلب منكسر، لا يكاد يستوعب الأمر، وكأنه في كابوس يستحوذ عليه، يتمنى أن لو يستطيع الفكاك منه.

مرت أيام، كل يوم يذهب»عمر» إلى «بتول» والتي تصمت أمامه بالساعات لا تتحدث، الصدمة قد أصابتها بانهيار عصبي وهو لا يدري عن أي شيء يحدثها وبأي شيء يخفف عنها!

كادت رأسه تنفجر، كل يوم يبحث عن المرض ويعرف عنه الكثير، حبيبته تضيع أمام عينيه ولا يستطيع فعل شيء، ذهب إلى الطبيب مرة أخرى يستوضح الأمر، كما أخبره بأنه ينتظره فى أي وقت.

أخبره الطبيب بأن الزواج منها أمر محفوف بالمخاطر، فالمرض ينتقل من الاتصال الجنسي، ويمنع العدوى ارتداء الواقي في العلاقة، وفي هذه الحالة لن يكون إنجاب، أما عن القبلات فلم تسجل عدوى عن طريق الفم؛ حيث إن المرض ينتقل عن طريق الدم أو الاتصال الجنسي.



أمور رفضها على نفسه عمر أن يفكر فيها من الأساس، بل أنكر على الطبيب ذلك، فحدثه:

ـ الأمر بيني وبين «بتول» أكبر من ذلك، جئت أعرف حالتها، ومصير المرض وتحدثنى عن واقٍ ذكري وطرق انتقال المرض؟! أنا لست خائفًا على نفسي، كل خوفي عليها.

رد الطبيب:

ـ أنا أحدثك بالعقل، وأذكر لك المخاطر، كطبيب أعي أنك الآن لا تفكر في ذلك، لكن أنت قلت إنها خطيبتك، وأنا أحدثك عن الزواج، أرجوك لا داعي الآن للمزايدة والعاطفة دون عقل، نحن نفكر في أمور بديهية، إن لم تستوعبها الآن ستأتني بعد ذلك تسأل عنها عندما يكون الأمر قد استُوعب.

دار الكلام في رأس «عمر» عندما عاد إلى البيت وعندما حدثه والده عن القادم ماذا سيكون؟ في برهة من الوقت أخذ يفكر بموضوعية، عن تلك المخاطر التي تحدث عنها الطبيب، ما لبث إلا لحظات واستفاق، وكأنه كان مخدرًا، فقال لنفسه: «تكون في شدة كربها وألمها وأنا أفكر في الزواج ومخاطره! الأهم حياتها ونفسها. هي «بتول» هي حبيبتي، على أي شيء وكل شيء هي أجمل النساء». أخذ يردد في نفسه وكأنه يرد على صوت العقل أو صوت الموضوعية التي اعتبرها نوعًا من الخيانة أن يذهب تفكيرة إلى ذلك الآن.



(١٨)

«ما أشد أن تُطعن البتول في شرفها، والقديسة في إيمانها وأخلاقها! أو تكون الزهرة موبقة؟! أو يحملن النحلات في بطونهن المر؟!»





«بتول» كل يوم يمر عليها تزداد حالتها تدهورًا، باءت كل محاولات أمها بالفشل كما باءت محاولات «عمر» وعمها، صمت يلازمها تعبر به عن ضجيج بداخلها، صدمة تطبق على أنفاسها وتعصف بكل كيانها.

لا تصدق أن يحدث لها كل هذا بين ليلة وضحاها، تفكر ماذا سيكون ظن الناس بها؟! كيف ستتقبل خوفهم منها وقد كان وجهها جنة أبصارهم؟! كيف تتحمل صدهم عنها، وهي التى كانت تهفو إليها الأفئدة وتتوق الأنفس أن تكون بجوارها؟! عليها تبرير ما لم تقترف، مجني عليها وبالجريمة تعترف، ما أشد أن تُطعن البتول في شرفها، والقديسة فى إيمانها وأخلاقها! أو تكون الزهرة موبقة؟! أو يحملن النحلات في بطونهن المر؟!

على الرغم من أنها لم تتعرض بعد لأي وصم أو ازدراء، لكن نفسها تخشى أن يحدث ذلك، أو أن تكون مجرد موضع شبهة أو حتى خشية من أحد أن يخالطها، وهو وسواس قهري طالما يتلازم مع الصدمة الأولى للمرض.

لا حيلة للأم المسكينة سوى البكاء، فزهرتها تسقط قبل ربيعها، والشمس تغيم قبل مغيبها، ما بال الأحزان لا تأتي فرادى، تجهز على البائس فتزيده بؤسًا!

سألتها أمها: كيف تكون راحتك؟ أتقطع كل يوم على حالك، أتمنى



لو تحدثيني، بالغي حتى بصياحك في وجهي، لكن لا تسكتي، لا تحرميني من دفقات صوتك.

هنا حدثتها «بتول»:

ـ لا أريد سوى أن أبتعد عن الناس، لا أريد أن أرى شفقاتهم على حالي، أو تحفظهم وهم يتعاملون معي، لا أحب أن أبدو ضعيفة أمامهم، هذا طلبي إن كنتِ تحبين لي الراحة يا أماه.

ـ نعم ابنتي، أتمنى لكِ الراحة وإن كانت على حياتي، لكن أين سنذهب ونبتعد؟

ـ نذهب إلى أي مكان، لا أريد سواك فقط، فأنتِ لن تخشي مني عدوى، وخوفك صادق، ولن أنكسر أمامكِ.

تداعت عينا والدتها أكثر، وبصوت مختنق بالحسرة:

ـ مستعدة يا ابنتي أن أذهب معك إلى أي مكان طالما أنتِ معي، أنتِ عوضي عن كل الناس، لكن لا مكان لنا سوى هنا.

صمتت لبرهة وكأنها تفكر:

ـ نذهب إلى الشقة التي اشتراها أبي، فقبل وفاته قد جهزها تجهيزًا بسيطًا وكأنه يعلم.

ـ لكنها يا ابنتي في مكان ناءٍ ليس فيه الكثير من البشر وعليها قسطان.

ـ لا أريد بشرًا، أنا أهرب منهم، أما عن القسطين، ندفعهما من المبلغ الذي وضعه عمي في حسابي في البنك. أرجوكِ يا أمي، أرجوكِ أريد أن أبتعد ولا يعلم عني أحد.



ـ سأقول لعمكِ يا ابنتي ويساعدنا.

ـ أنا لا أريد أحدًا أقول لكِ أهرب من كل الناس حتى عمي، سنذهب دون علمه وهو لا يعلم مكان الشقة.

ـ و«عمر» يا حبيبتي؟

سكتت لثوانٍ ثم أردفت:

ـ «عمر» من أشد أسبابي للبعد يا أمي، ألا ترين حيرته؟ سأرفع عنه الحرج ولن أشق عليه في اختيار صعب، أنا أتألم من حيرته ومن صعوبة اختياره، لا أريد أن أنتظر حتى أسمع منه أنه لم يعد قادرًا على التحمل، أريد أن أبتعد يا أمي، إن كنتِ تريدين راحتي فهذه راحتي.

ـ وكيف سنذهب يا ابنتي دون أن يعلم عنا أحد وعمك يسكن فوقنا؟

ـ سنذهب يا أمي وهو و«يحيى» في العمل، ولن نرحل من هنا بشيء، لا أريد شيئًا، هناك أريكة قديمة وصالون و«بوتاجاز» لأنها كانت تؤجر مفروشة في الصيف قبل أن يشتريها والدي، ألم تري هذا عندما ذهبنا مع والدي كي نشاهدها، ووالدي أصلح ما كانت تحتاجه قبل وفاته؟

ـ وأشياء عمر؟

ـ أشياء «عمر» سأحفظها له عندي، علاقتي به أكبر من أن يكون ذلك تفكيره أو تفكيري، عمر ليس خاتمًا ولا دبلة، عمر بداخلي، وأنا أيضًا لا أستطيع أن أنزع دبلته من أصبعي، لا أستطيع، سأحتفظ له بها، ورديها يا أمي عند موتي.

في هذه الأثناء انفجرت الأم بالبكاء وهي تحتضنها وتقول:



ـ فداك روحي، فداك جسدي، ليتني كنت أصبت أنا، فلا حاجة لي في الحياة بعد والدك انت عزائي بعده.

عزمت «بتول» على الرحيل، لم تجد والدتها سوى أن توافقها، علها ترتاح قليلًا،.

بعد خروج «زكريا ويحيى» إلى عملهما خرجتا تتسللان، كل أمتعتهما وجع وحسرة، أُغلق المنزل الذي لطالما كان مفعمًا بالحب والفرحة، أطفئت كل أنواره، وأضحى ظلامًا يبكي فراق ساكنيه.

أغلقت «بتول» قبل رحيلها حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي، وكسرت شريحة جوالها، وطالبت من أمها أن تنزع شريحتها حتى لا يعلم أحد مكانهما ولا يتحدثا مع أحد.



(١٩)

«وحيدة يبحث عنها جمعها»





ثلاثة أشهر انقضت على ذلك العم البائس، يحاصره شعور بالحسرة من كل اتجاه، شعور لا يزيحه عنه سوى أن يجد «بتول»، تلك الأمانة الغالية من أخ عزيز، لا تفارق «زكريا» نظرات «عادل» له وهو في الرمق الأخير وكأنه يوصيه بزرعتيه الضعيفتين بعدما تهب عليهما رياح الفقد العاتية، رحيل «بتول» وأمها كانت الطعنة الثانية بعد أخيه، فقد كانا عزاءه في أن يبرهما ويتكفل بهما؛ فيرفع عن نفسه حرج شهادته ووصية أخيه.

ثلاثة أشهر، ذهب خلالها إلى «أبو يوسف» أكثر من مرة مع ابنه «يحيى» ورافقه مرتين «عمر» يتحسس خبرهما، فلا يعلم سوى أنهما في هذه المنطقه، أو هكذا ظنه، حيث إن هناك شقة «عادل» التي اشتراها قبل وفاته، من المؤكد أنهما رحلا إليها، ولكن أنى يجدهما في هذه المنطقة مترامية الأطراف كثيرة البنايات؟ قد سأل عنهما الكثير هناك، لكن ردودهم أنه يبحث عن قشة بين أكوام من القش، فهو لا يعلم لهما اسم شارع ولا اسم صاحب البنايات الذي اشترى منه «عادل»، يتندم على أنه لم يلبِّ دعوة أخيه أكثر من مرة للذهاب معه إلى الشقة التي اشتراها في «أبو يوسف»، لكنه كان يؤثر العودة بعد يوم شاق من العمل على الذهاب معه إلى هذا المكان المتطرف البعيد، ذلك الندم الذي صاحب «عمر» أيضًا، فلم يهتم يومًا أن يعرف مكان تلك الشقة من «بتول»، بالتحديد في «أبو يوسف»، فلم تكن له وجهة في هذا الغرب من الإسكندرية ولا دراية، فقط يمر عليها



عند ذهابه لإحدى قرى الساحل أو «مارينا»، أما هذه المنطقة فليس له فيها شيء وهو القاطن في شرق الإسكندرية المترف، لم يزرها إلا بعد اختفاء «بتول» عندما علم من عمها إمكانية تواجدها هناك قد ذهب مرتين مع عمها يسأل عنها، ومرة رافقته «هناء» التي أصرت إلا أن تذهب معه باحثة عن صديقتها الغالية.

زاد من صعوبة مساعيهم في البحث أنهما غير معروفين للسكان هناك إن سألوا عليهما، إلا أن يكون أحد رآهما عند مجيئهما.

ربما مروا يومًا بجوار مسكنها، أو ربما وطئت أقدامهم موضعًا لأقدامها، وحيدة يبحث عنها جمعها، دائمًا كان ينظر «عمر» إلى المباني هناك وكأنه يستعطفها، ألا تخبئ عنه حبيبته، يا لهذه الجدران التي تحول بينه وبين حبيبته، ولهذه العين القاصرة التي لا تستطيع خرقها! يفرح لبرهة لو لاحت لعينه مثل هيئتها، ثم تنقلب حسرة عندما يكون أمامها ولا يجدها هي، يود لو أن ينادي عليها في كل شارع هناك، علها تسمع أو أن يخترق عزلتها صوته. ترك رقم هاتفه لأكثر من سمسار هناك للعقارات حتى يتصل به إن علم شيئًا، لكنه أبدًا ما كان يمهلهم لذلك، فكان يهاتفهم باستمرار، كما كان يتواصل مع «زكريا ويحيى».



(٢٠)

«الألم يحب انعزال فريسته حتى يتمكن منها وحدها؛
لأنه أضعف من أن يأتينا في جماعة»





مرت خمسة أشهر، اليوم فيهن بعام أو يزيد، هكذا أيام الألم والحزن على صاحبها، يشعر بكل ثانية فيها.

بيت جديد أوغلها في العزلة كانت تريد به البعد عن الناس ونظراتهم وطعنات فضولهم، لكنه كان لها خلوة مع وجع وشبح يريدان أن يفتكا بها.

أيام كان نهارها لا شمس فيه، وليلها ظلمات بعضها فوق بعض لا قمر فيه، الصمت كان بوحهها عما بداخلها من ضجيج وصراخ، والدموع شقت لها نهرين على خديها لا يجفان، فارق النوم جفنيها، وصوت أزيزها كان يوقظ أمها من غفوتها التي كانت تأتيها عنوة، فتضمها إلى صدرها حتى الصباح، لا تأكل إلا لقيمات يقمن الصلب بعد ضغط شديد من أمها، فأين تلك النفس التي تتلذذ أو تتذوق؟!

نومها كان مرحلة فاصلة بين مرحلتين من اللا نوم، فكان يأتيها غصبًا عندما ينهك جسدها من السهر والبكاء، لتصحو منه منزعجة تنفضه عن نفسها وكأنها ارتكبت خطأً بنومها.

باءت كل محاولات أمها أن تخرجها مما فيه بالفشل، فشاركتها ألمها وبكاءها، ليس تكلفًا، إنما هو حال من وجدت حياتها تنتزع من بين يديها وسراجها المنير ينطفئ أمامها، ووردتها تذبل بجوارها ولا تستطيع حيلة.



«بتول».. أي نفس تتحمل ما أصابك؟! خلقتك لا مثيل لها بين البشر، وابتلاؤك لا يتحمله بشر، لأى شيء تصنعين؟ يسقط سندك ثم تأتيك رياح عاتية تعصف بظهرك المكشوف، أول الملائكة الإناث أنتِ، فأراد ربك أن يقطع عنك البشر ويقطعك عنهم، كيف لقلبك الرقيق أن يُكسر، ولجسدك النحيل أن يتحمل كل هذا الوجع، وكيف لروحك النقية أن تطيق كل هذا الكدر والعكار السام؟!

حال أمها البائس على حالها جعلها تجاهد نفسها أن تغير شيئًا في حياتها، من أجلها فقط، من أجل ما تبقى من أمها التي تنتكس يومًا بعد يوم مطعونة في ابنتها، لم تجد أمامها سوى حاسبها المحمول، والذي دائمًا ما طلبت منها مجرد فتحه، لتتواصل مع الغير كما كانت قبل ذلك، علها تنسى.

وعلى مضض وبتحفظ من أجل أمها، ساقت نفسها إلى حاسبها، وذهبت إلى ذلك العالم الافتراضي، لكن واقعها الحقيقي لم يتركها أيضًا عليه، فكان أول ما كتبته على متصفح البحث «الإيدز» ليعود لها شبحها الذي لم يذهب عنها من الأساس، أو الذي ذهبت به تحمله بداخلها حيث وجهتها ولم تتوجه لعالم آخر هربًا منه.

ما إن ظهرت نتائج البحث حتى انقبض قلبها وانهمرت دموعها، فأكثر ما ظهر من عناوين يبعث على ذلك، أنه مرض لا يرجى منه شفاء، ويوصم صاحبه أكثر مما يمرضه، وأنه مرتبط بكل فعل غير سوي وإن كان ليس بالضرورة أن كل ضحاياه كذلك، أغلقت حاسبها سريعًا، فقد زادها ألمًا على آلامها وحزنًا على حزنها، أتت إليها أمها، ضمتها بين ذراعيها، حدثتها متأثرة:



ـ متى تعودين إلى بتول التي نعرفها؟ متى تتفتح زهرة شبابك كما كانت؟

ـ أتظنين يا أمي أنني راغبة فيما أنا عليه؟!

أتظنين أن بيدي الخروج من ذلك؟ كيف أعود إلى ما كنت عليه وأصبحت مريضة بالإيدز؟! كيف أكون كوقت المعافاة وأنا في أشد البلاء؟! كيف تتفتح زهرتي وقد جف عن أرضي الماء وفارقتني الحياة؟!

غلبها البكاء كالعادة وخارت قواها وأعصابها، واستلقت على صدر أمها ينساب دمعها عليه.

مرت بضعة أيام على مهل وتراخٍ، وجع له براح في الوقت وأمل لا وجود له، ثوانٍ تمر بوخزات على جسدها، ودقيقة تحوي ستين ألمًا، وساعة بها ستون طعنة، ويوم يتعاقب فيه الويل بعد المرار.

عاودت الكرة مرة أخرى، لكن هذه لم تكن نتيجة إلحاح الأم عليها، فكانت تناشدها ألا تفتحه إن كان الأمر سيصل بها إلى ما وصل إليه من قبل، وكانت النتيجة عكس المرجو.

لعل ما دفعها لذلك هو أن الشاة لن تُضر بعد ذبحها، فتحت حاسبها بيد مرتعشة ونفس محطمة، دون إرادة منها، أخذت أناملها تحضر عفريتها المخيف وهي تكتب على متصفح البحث «الشفاء من الإيدز».

هي تعلم علم اليقين ألا شفاء منه، لكنه الحلم والسراب الذي يتمناه الظمآن ماء، كتبت علّ ذلك يخفف من وطأة حزنها، وإن كان بوهم تتعاطاه لتغيب عن الحقيقة.

ظهر لها في قائمة البحث مقال بعنوان: «الإيدز ليس وصمًا».



لكنه على صفحة على موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك».

صفحة تحمل اسم «فراشة المتعايشين» وصورة لوجه مبتسم.

على الفور كانت بداخلها بضغطة زر دون تسجيل دخول لحسابها الشخصي الذي قد حذفته من قبل في إطار العزلة التي فرضتها على نفسها.

عنوان المقال والصورة التي كانت تزين الصفحة كان لهما الأثر الكبير الذي جعلها تختار تلك الصفحة من قائمة نتائج البحث دون غيرها.

قرأت ذلك المقال الطويل الذي ساق في فحواه الكثير من الردود المنطقية على أن الأيدز ليس وصمًا بل مرضًا، بيد أن الذى استوقفها عن تلك الردود هو صاحبة تلك الصفحة، التي تذيل كل منشوراتها بـ# فراشة _ المتعايشين _ أميرة.

قد وجدت مثيلتها، بل وتتحدث بقوة، وإن كان من وراء شاشة للحاسب، واسمًا وهميًّا، لكنها تتحدث، هذا إنجاز في حد ذاته، مقارنة بما هي عليه منذ خمسة أشهر، لا تستطيع تجاوز هذا الحدث، حتى في مجرد أن تهنأ بنومة، ومن عدد المتفاعلين مع منشورات تلك الصفحة والتي تجاوز ثلاثمائة على أحد المنشورات، جعلها تستشعر أنها ليست وحيدة، وأن ثمة مجموعة تشبهها مختبئون فيما بينهم عن أعين المعافين، لكن ما زال صوت بداخلها يأبى مجرد القبول والاعتراف الضمني بالمرض، وكأن اعترافها من عدمه سيغير من الواقع شيئًا، ومع ذلك كان بعض السلام المستحي والهدوء الحذر قد تسللا إلى روحها، جعلها تغلق حاسبها هذه المرة بشيء من التماسك تحت تخدير نصفي لما قرأته، وكأنها استكفت به فلم تتجول



على غيره لتحافظ على تلك اللحظات الثمينة العزيزة التى لم تأتِ بفرحة، لكنها سكنت أو غشيت على الألم قليلًا.

جن عليها الليل وهي على هيئة جلستها المعتادة على سريرها، تقرِّب ركبتيها من صدرها، وتحيط بذراعيها على ساقيها، محدقة البصر نحو اللا شيء، يدور برأسها الكثير من الأسئلة والاستفسارات التي تبحث لها عن أجوبة، ذلك الذي قد أثير بفعل مرورها على هذه الصفحة، قد لاح في الأفق أحد من الممكن أن تحدثه، أن تسأله دون تحفظ ولا خجل، وذلك أنها أيضًا تحمل نفس الفيرس اللعين، ومع ذلك تتحدث وتتفاعل وتنشئ صفحة وتوجه المرضى وتواجه، أنى لها كل هذا التحمل! وكيف استطاعت تجاوز أزمتها ومحنتها العظيمة؟! هذا ما كان يدور في رأس «بتول» في الساعات التي تلت خروجها من دروب العالم الافتراضي إلى واقعها.

...

لم تستطع المضي قدمًا فيما عزمت عليه بأنها ستكتفي بتلك الدقائق التي قضتها في الفضاء الإلكتروني هذا اليوم، ذلك أن ثمة ازدحام بداخلها، تبحث له عن تنفيس، وثمة بوح تريد أن ينفك به لسانها، وضالة تبحث عنها، علها تجدها في ذاك العالم.

لم تجد بُدًّا إلا أن تتناول حاسبها الشخصي لتلوذ به من مرقدها إلى أشخاص وعوالم أخرى، لم تكن العودة إلى الحاسب، ومن ثم التصفح عبر الإنترنت فقط هو القرار الذي عدلت إليه، بل قرار ثانٍ وأهم، وهو إنشاء حساب على موقع التواصل الاجتماعي باسم افتراضي ومعلومات وهمية حتى يتسنى لها التواصل من خلاله دون أن يتعرف عليها أحد.



ذلك الأمر الذي شرعت في تنفيذه فور أن «تفتق» ذهنها بتلك الفكرة.

سريعة قراراتها وتحولاتها، الشيء ونقيضه قد يجتمعان بخاطرها في آن واحد!

ما زالت رجفات صدمتها تعبث بكيانها وتتحكم في ردود أفعالها، فعلى الفور، كان حسابها الجديد ومولد فرد في هذه العائلة العنكبوتية يحمل اسم «الباحثة عن الأمل».

تخلت عن بتول؛ خشية أن يصل إليها أحد تعرفه، وحملت اسمًا يعكس حالها. إنها فقط تبحث عن أمل قد يكون سببًا لها تحيا من أجله، في وقت لا تجد لها سببًا مقنعًا للعيش، سوى أن أمر الله ما زال مؤجلًا.

ما إن دخلت «باحثة عن الأمل» إلى صفحة «فراشة المتعايشين» حتى توجهت صوب الركن الصغير الذي يمتد فيه خيط الكلام إلى ما لا نهاية، فعلى الرغم من أنه يدعى صندوق الرسائل، إلا أنه لا يمتلئ ولا يفيض بما يملؤه كباقي الصناديق.

انطلقت أناملها على لوحة المفاتيح بما تلجم به لسانها وتلعثم، تسطر كلامًا غير مرتب، فقط يندفع من قلبها فيتساقط كالمطر العشوائي على ذلك الركن الذي لم يسكنه من قبل أية كلمات.

ـ أنا ميتة دون دفن، حية بلا روح، لفظني ظهر الأرض ولم يحن وقت قبولي في باطنها، عجزت بعد أن فقدت السند، بت أخشى مما لم أقترفه، عليَّ تبرير ما لم أفعله، وتصحيح ما لم أخطئه، أعيش على أمل معجزة من معجزات الأولين، أو أن أصحو في صباح فأجدني وقد قمت من سبات عميق، كان كابوسًا من الشيطان، أتندر على أيام كثيرة قد انقضت قبل



يومي المشئوم الذي علمت فيه بالفيرس اللعين، ليت أمي لم تلدني، ليتني مت قبل ذلك وكنت نسيًا منسيًّا!

كان ذلك بوحها الذي غلبها فخرج منها دون تحكم أو ترتيب، وعلى عكس ما كانت تتوقع أن يكون أحد مستمعًا لها في نفس اللحظة، بل ويهم بالرد عليها، بدا ذلك من علامة ظهور الرسالة للطرف الآخر بعد أن ضغطت على إرسالها بثوانٍ، وكان الرد الذي لم يتأخر:

ـ حبيبتي هوني على نفسك، لستِ وحدك، الكثير بجوارك، المرض أبدًا ما كان وصمًا أيما كان هذا المرض، ونحن لسنا عارًا ولا ينبغي أن نشعر بذلك، صحيح أن الإيدز أو فيرس HIV لم يخرج من الأبدان، لكننا نستطيع أن نجعل أبداننا مقابر له وأن يموت بداخلنا.

نظرة الناس إلينا نحن من نصنعها ونواجهها، فكيف يرانا الناس أننا مثلهم؟ لا ينقصنا شيء، ونحن لا نرى أنفسنا كذلك.

كفاكِ بالله عليكِ جلدًا لنفسك بما لم تقترفيه، لا تجعلي أعين الناس وألسنتهم تحدد لكِ حياتك، ولا تعطيهم أكثر من حقهم، أنتِ فرد كغيرك، بل ربما أفضل من كثير منهم، لكلٍّ حاله وحياته، لماذا نظن دائمًا أن الكل ينظر إلينا ويتحدث عنا؟ أمرنا لا يهم سوى ذواتنا، فدعكِ من الناس.

أرسلت إليها «بتول»:

ـ هل أنتِ مقتنعة بما تقولين؟..

ـ ليس لديَّ خيار آخر، لا بد أن أقتنع، ولا بد أن أتأقلم.



ـ من أين أتيتِ بهذه الطاقة التي جعلتك تتخطين الألم وتنشئين صفحة وتتفاعلين مع الغير؟

ـ لم أتخط الألم بعد، وربما لن أتخطاه، لكنها محاولات لتخطيه، تنسيني الألم لبرهة من الوقت، أُكثر من تلك المحاولات، حتى تأخذ كل وقتي، فلا يكون وقت كي أشعر بالألم، الألم يحب انعزال فريسته حتى يتمكن منها وحدها لأنه أضعف من أن يأتينا في جماعة، أتكلف التماسك والثبات، ومن كثرة مكابرتي أصدق نفسي، فيذهب عني حزني، فأتذكر فأرجع له، ثم أستجمع نفسي وأعود، لكنني لا أيأس، وإن أردتِ أن تعرفي من أين جاءتني هذه الطاقة، فهي في أمر واحد فقط، هو بانشغالنا بإسعاد الناس ودفعهم معنويًّا نسينا حزننا وضعف نفوسنا.

أرادت أن تخرجها من ذلك كله فغيرت دفة الحوار دون أن تنتظر ردها.

ـ لم أتعرف عليكِ ولم تعرفيني بعد.

دون أن تتردد: «بتول».

ـ أنا «باحثة عن أمل».

فردت عليها:

وأنا «فراشة المتعايشين» ثم أتبعتها بـ«هههههه» وأردفت:

ـ لم أقصد هذا، أقصد أن نتعارف سويًّا ونوثق رابطتنا.

ـ لو أستطيع ما دخلت «بباحثة عن أمل» لا أريد أن يعرفني أحد، اعذريني.



ـ أنا مصابة مثلك، ونحن في فضاء إلكتروني، فلمَ الحذر أو الخوف؟ مع ذلك أحترم رغبتك، والأيام ستوثق علاقتنا رغمًا عنا، وحتى تطمئني لي، أنا «أميرة» من الإسكندرية ٣٠ عامًا، متعايشة مع «الإيدز» منذ سنتين،

حملت على عاتقي عبء الإرشاد عن الإيدز ودعم المصابين معنويًّا، في الحقيقة ليس عبئًا، بل كان نشاطي هذا الشغل المخفف عني الذي شغلني عن الجلوس مع أحزاني.

ـ هل من الممكن أن أكون مثلك في وقت ما أستطيع التحدث والعمل وأتجاوز مصيبتي وصدمتي؟

ـ نعم.. إن أردتِ.

ـ وهل هناك أحد لا يريد الخروج من بئر أحزانه؟!

ـ نعم، هناك من يجلس كثيرًا يندب حظه ويبكي على ظلم الأيام له، ومنهم من ينتظر أن تأتي له الأيام بفرحة، أو أن ترفع عنه ألمه كما جعلته عليه، السعادة تُنتزع ولا تُمنح، والحزن يُقتلع ولا يذهب وحده.

وفي أثناء انشغال «بتول» بالتفكر في فحوى الرسائل تابعتها:

ـ سأرسل لكِ طلب صداقة على حسابي الشخصي، وسأضيفك إلى المجموعة الخاصة بنا، ومن حسن القدر أنكِ ستتعرفين على أغلب الأعضاء هذه الأيام؛ حيث إن غدًا انطلاق فكرة «فضفضة» وهي أن من يريد المشاركة سيكون له يوم للفضفضة ويحكي ما يود قوله، وينفس عن نفسه، ويروي سبب إصابته إن شاء ومشاكله، ونحاول إرشاده ومساعدته عن طريق التعليقات، أو لو أن هناك أمرًا ماديًّا أو مساعدة ملموسة سنقوم بها،



مع العلم أن المجموعة كلها بنات حتى لا يكون حرج.

كالمتعلق بقشة والمنعدم الخيارات في أمره ردت «بتول»:

- أنتظر إضافتك.

على الفور كانت الإضافة من «فراشة المتعايشين» ثم الإضافة إلى مجموعة «على قيد الحياة».

فكانت «أميرة» أول الأصدقاء الجدد لـ «بتول» في عالم آخر، وكانت المجموعة أول مكان يجمعها بأناس جدد.



(٢١)

«فراق مؤلم، وألم يجبر على الفراق»





طيلة هذه الخمسة أشهر وهو في تيه، قد غاب عنه دليله في طريقه إلى الحلم، إلى السعادة، يتذكر كلماتها السابقة وهي تحكى له خوفها من الفراق وهو يطمئنها بأن لا فارق إلا فارق الموت. صدقت كلماتها بأن للدنيا ظروفًا وتغيرات وكأنها يوحى إليها من السماء، أو أن قلبها الرقراق كان يشعر بما تحمله الأيام.

كان يشعر بثمة خذلان منه تجاهها، على الرغم من أنه ظل بجوارها حتى رحلت خلسة مختفية عن الأنظار.

كان يشعر بذلك الخذلان، أنه مر بخاطره للحظة استحالة إتمام الزواج على هذه الحالة، وأخذ يبرر في قرارة نفسه، أنه زواج محفوف بالمخاطر، لا إنجاب فيه، مقيد باحتياطات، رغم أنه قد قتل كل هذه الأحاسيس التي تسللت إلى نفسه في لحظة تفكير حر، إلا أنه يعتبر مجرد ورودها خيانة وخذلانًا، حتى وإن لم يتفوه بها، كان يرى أنه لا ينبغي أن يبحث في أمر سلامته إن تزوجها، ولا يتسلل له من الأساس ذلك الأمر، فنفوس العاشقين تبوح بدواخلها، والمحب الصادق يرى بواطن حبيبه ومخاوفه ولعلها علمت بما بدر إلى ذهني فرفعت عني الحرج.

طيلة الخمسة أشهر لم يألُ جهدًا في البحث والسفر الدائم للسؤال عنها، لم يعد يهتم بهيئته وأناقته التي كان يهتم بها، ولسان حاله:



ولمن أتجمل إن لم ترني عين «بتول»؟! حتى جسده قد تأثر بما تأثرت به نفسه وهيئته، فبدا وقد نقص بعض وزنه، أو لم يعد مهتمًّا بتدريبات «الجيم» التي كان حريصًا عليها ليبدو جسده مبنى متسقًا مع وسامة وجهه الذي أصبح هو الآخر شاحبًا استباحته شعيرات الذقن والشارب.

كل يوم ينادي عليها في ذلك العالم الإلكتروني؛ علها تكون متابعة له من حساب آخر، فكانت آخر منشوراته كل يوم وفي نفس الساعة الحادية عشرة منشورًا ثابتًا وهو: «أين أنتِ حبيبتي بتول؟ أحتاجك». حتى عُرف عنه مجنون «بتول» فقد كان ذائع الصيت على موقع التواصل الاجتماعى بمنشوراته الرومانسية الرقيقة.

ليله نداء في الفضاء الإلكتروني، ونهاره لا بد أن يكون في عمل يبحث فيه عن «بتول»، مثل أن يذهب إلى «هناء» يبحث عن جديد، أو يحدث «يحيى» ابن عمها عن جديد، أو حتى يذهب بنفسه في أيام كثيرة أو يتوجه إلى «أبويوسف».

ما أصعب أن تكون بعيدًا عن الحبيب، بُعدًا لا تعلم له نهاية وتعلم أن حبيبك يتألم ولا تستطيع التخفيف عنه، فضلًا عن أنك لا تستطيع إليه سبيلًا!

فراق مؤلم، وألم يجبر على الفراق، ذلك ما كان يشعر به وهو في منزلة من امه التي لم تحترم قداسة حزنه وقدر «بتول» بداخله، فما تفتأ كل يوم تحدثه عن نسيان الأمر والزواج من ابنة خاله، فكل شيء جاهز ولا يوقف الأمر إلا موافقته، ذلك الإلحاح المستفز طيلة الأشهر المنصرمة جعله يتخذ قرارًا بالرحيل والسفر خارج البلاد إن لم يجد «بتول» القرار الذي عدل عنه أكثر من مرة. فكم من شهر قال قبله أو خلاله إن أنتهِ ولم أجد



«بتول» سأهاجر لكنه لا يستطيع! يقول علها تظهر، أو أنه لا يستطيع السفر من الأساس، لكنها الفزاعة التي يلوِّح بها لأمه كي تتوقف عن مطالبته بالزواج، بالرغم مما كانت عليه، إلا أنها عند سماع ذلك التهديد تنكمش خوفًا ويتلبسها القلق الشديد، وأحيانًا البكاء، فهو الولد الوحيد المدلل، نور عينيها كما تحب أن تصفه دائمًا، لكن أحيانًا من الحب ما قتل، أو ما جعل الحبيب يلوذ بالهجرة للبعد عن سطوة وأنانية حب محبه! فما كان منها دائمًا على الرغم من قسوته وشدته، إلا أن دافعه حب، كانت ترى في «بتول» الفتاة التي سرقت فتاها منها، دائمًا ما تجعلها ندًّا، رغم أن الأخيرة كانت توصي «عمر» بها، وكانت تحاول جاهدة الوصول إليها بشتى الطرق، ولم تقابل عبوسها أحيانًا وشدة كلماتها حينًا آخر إلا بلين النفس والطيب من الحديث.

بلغ هذا الضجر أشده على «عمر» مع ازدياد ضغط الأم التي ترى أن الأيام تنفرط وما زال ولدها معلقًا بمجهول، تخشى أن تظل له عقدة خاصة، وأنه بالفعل اختزل كل نساء الدنيا في «بتول» وهو ما جعل الأم تحرص على زواجه، ليس للزواج في ذاته، لكن خوفًا من أن تظل هذه العقدة ملازمة له.

خمسة أشهر وما زال يمني نفسه بأن يراها، يتندر على أيام قد مضت كانت بجواره، يتحسر على أوقات في تلك الأيام ضاعت دون أن يستثمرها في اتصال أو أن يراها، سنة مرت عليهما من عمر خطبتهما من قبل، لا يشعر بها، وكأنها ساعات أو بضعة أيام أتت على غفلة وسرقت منه.





(٢٢)

«هربوا إلى ذلك الموطن الافتراضي بعدما استحال عيشهم في براح الواقع»





حدود يجتمع فيها أناس مرتبطون فيما بينهم بشيء واحد، فكانت دولتهم الصغيرة التي لجأوا إليها عندما لفظتهم مواطنهم، ووصمهم بنو جلدتهم، هربوا إلى ذلك الموطن الافتراضي بعدما استحال عيشهم في براح الواقع، فأسسوا دولتهم بعيدًا عن نظراتهم الدونية، وكلماتهم الاحتقارية، فرحلوا بعيدًا بآلامهم ومرضهم وحزنهم، وتركوا الحياة لأصحاء «البدن» !! وسكنوا هم حيز مجموعة «على قيد الحياة».

«ملكة الأحزان»:

«أعاني من حصوات على المرارة والوجع بلغ أشده، أحتاج إلى عملية سريعة وفي أقرب وقت، عندما أذهب لطبيب وأخبره أنني مريضة إيدز تتغير معاملته معي، ويرفض رفضًا قاطعًا إجراء العملية؛ وهو ما تكرر أكثر من مرة، فكرت في أن أخفي مرضي ولا أنبأهم به، خاصة أنه لا أعراض عليَّ من أعراض المرض المتأخرة المعروفة، والأمر الثاني أنهم لا يجرون تحليل «hiv» لتحضير العمليات، ويكتفون بفيرس b, c وبالضرورة هم يأخذون احتياطاتهم للعمليات، كما يفعلون مع أي عملية أو حتى مرضى b, c وطرق الانتقال واحدة، فما رأيكم في ذلك الأمر، خاصة وأنني لن أضر أحدًا، وسأرفع عن نفسي ضررًا بالغًا؟ أريد أن أسمع آراءكم، وإن كانت هناك تجارب مماثلة».



«فراشة المتعايشين أميرة»:

ـ أن تجري العملية هذا حقك بأي شكل كان، طالما أن الأطباء هم أعرف الناس بالمرض وبطرق انتقاله، يتعاملون معنا هكذا، إن صارحناهم لن يكفوا نظراتهم الدونية إلينا، ولن يعاملونا كمرضى لنا حقوق، بل كمذنبين مدانين، إلا القليل النادر، لا بد أن نصعِّد ذلك الأمر، وأن نرفع مذكرة بأسماء كل طبيب يتعامل مع مريض «إيدز» بعنصرية إلى منظمة الصحة العالمية، لا بد أن نكون فاعلين.

«راضية بالقضاء»:

ـ كانت لي تجربة مماثلة، وأجريت عملية في الركبة ولم أخبر الطبيب، هم يحصنون أنفسهم، لا تخشي عليهم، وهذه مهنتهم، لا بد أن يتعاملوا مع كل الحالات.

«صغيرة الكبار»:

ـ هذا غش وخداع، لا بد أن تفصحي بالحقيقة وإن كانوا يتخذون الاحتياطات، افترضي دائمًا الشيء النادر إن كان له نسبة حدوث، نحن نريد من الله أن يعافينا لا أن نبلي غيرنا، ابحثي وستجدين طبيبًا على علم وخلق وسيقوم لكِ بالعملية.

كانت «ملكة الأحزان» أول من فضفض بمشكلتها في إطار هذا المشروع المتفق عليه لمن أراد أن يشارك، وإن كانت فضفضتها ليست المعنية من الفكرة، فمثل هذه المشاكل تُطرح كل يوم على «الجروب» من معاناة مرضي الإيدز، ولو كانوا يعلمون أنها لن تفضفض عن نفسها أكثر وطريقة انتقال المرض إليها لما أجلوها إلى أن يبتدأ يوم الفكرة، وكانت أول من حدد لها يوم كانطلاقة للفكرة.



كل التعليقات كانت تصب في إطار ألا تحدث الطبيب المعالج القادم بمرضها، خاصة أنها لن تضره في الغالب،

إلا تعليق «صغيرة الكبار» الذي أثار حفيظتهم وانهالت عليه الردود، وهذا حال تعليقاتها دائمًا، فمنذ انضمامها للمجموعة من شهر، وكل منشوراتها تفجر أزمات، قد شُك في أمرها من قِبل أنها ليست مريضة «إيدز»، فدائمًا ما تهوِّن من مرضهم وتطالبهم بالحمد، وأنهم أفضل من كثير، وهو ما يحملهم على الحمد على مضض منهم؛ حيث إنهم لا يرون أولئك الكثير الذين هم أفضل منهم!

ليس فقط منشوراتها هي الغريبة وتغرد خارج السرب، ولكن أيضًا صورتها، فهي الوحيدة التي تظهر بصورتها الغريبة الحقيقية، كما أكدت أكثر من مرة عندما كانت تُسأل في هذا، لكنها كانت تتحفظ أن تبدي أية معلومات أخرى عنها؛ الأمر الذي أثار قلقهم تجاهها ودائمًا موضع شك!

صورتها تحمل ملامح امرأة عجوز قد بلغت من الكبر عتيًّا، قد تجاوزت السبعين من عمرها أو يزيد، كيف لمثلها أن تكون ما زالت مهتمة بأمر مواقع التواصل الاجتماعي، بل كيف لمثلها أن تكون ما زالت على قيد الحياة من الأساس؟! كانت تلك أسئلة نفوسهم المشروعة عندما يتفكرون في أمرها.

كانت تأخذ غضبهم وقيظهم من منشوراتها وتعليقاتها بشيء من الهدوء الذي يزيدهم اشتعالًا منها، فتكون ردودهم المعتادة عليها: أنتِ أخذتِ حظًّا وافرًا من الحياة، لا تشعرين بما نحن عليه كشباب أصيبوا بالمرض من أول عمرهم، فإصابتك لن تضير في شيء من حياتك إن كنتِ مصابة من الأساس! حيث كانت إصابتها موضع شك من الجميع، لكنها دائمًا أيضًا



ما تؤكد أنها مصابة وتتحفظ عن إعطاء أية معلومات أخرى!

تابعت «بتول» هذه المشكلة والتعليقات والآراء التي تفاعلت معها، وتابعت أيضًا المناوشات التي تمت مع «صغيرة الكبار»، لكنها كانت تتابع من طرف خفي، تنظر إليهم دون أية مشاركة منها أو تفاعل، بالرغم من أن «أميرة» «فراشة المتعايشين» قد كتبت لها منشور استقبال، والكل علق ترحيبًا بها، لكنها لم ترد، ما زال الحزن يلجمها، ومخاوفها تكتف أطرافها.

لم تدلِ بدلوها، ولم تكوّن رأيًا فيما عُرض؛ ذلك أنها لم تهتم بالأساس في التفكير في ذلك، فالمنشور قد أيقظ بداخلها حزنًا وألمًا قد أخذته سنة من النوم البسيط، فهي ضمن أولئك الموصومين من الناس ومن الأطباء، المفترض فيهم أن يكونوا مخففين عن المرض ومعالجين لآثاره النفسية والجسدية وليسوا جزءًا من مشكلة مريض «الإيدز»!

بعد انتهاء السجال الدائم، دَاخَلَ «على قيد الحياة» هدأت التعليقات، وبدأ ينفرط عقد المشاركين، ذهبت «فراشة المتعايشين» إلى «باحثة عن الأمل».

دخلت تطمئن عليها وتعرف منها رد فعلها عن «الجروب» ولماذا لم تشارك معهم؟ بدأتها برسالة تلقي عليها السلام. فكان الرد سريعًا من «بتول» والتي كانت سارحة في ملكوتها الخاص، يدور في رأسها كل ما دار من نقاش.

تجاذبتا أطراف الحديث والذي حاولت فيه «فراشة» أن تذهب به بعيدًا عن «الإيدز»، فأخذت تتحدث عن دراستها وقراءتها وأمنياتها.

بدأت تتحرك المياه الراكدة بفعل بوح «فراشة»، فبدأت بتول تتبادل الحديث دونما الإفصاح عن أية معلومات عنها.



انهكمها حوار طويل، حتى بدأ يغالبهما النوم الذي عز وجوده دون أرق، استودعا بعضهما، على أمل الاستكمال في الغد بعد فقرة الفضفضة أيضًا، والتي كما أخبرت «فراشة» «باحثة» سيكون وقت فارق في حياتها وفضفضة، لطالما تمنت تنفيسها.





(٢٣)

«ما أجمل أن يُجبر كسر بفتات نفس مكسورة!»





«لأول مرة أرفع عن نفسي صخرة كانت جاثمة على صدري، لا أحد يحب أن يفضح نفسه، لكن الإحساس الأشد أن تعيش طوال الوقت خائفًا من أن ينفضح أمرك؛ فتتغير نظرة أصحابك إليك، أتألم دائمًا عندما أسمع منكم أنكم مصابون «بالإيدز» وأنكم طاهرون ولم تفعلوا أي شيء من شأنه يشينكم، عندها فقط أعلم أن حتى «الإيدز» درجات وعندها أيضًا أحسدكم، نعم أحسدكم أنتم مرضى «الإيدز» وأعلم صدق حديث صديقتنا «صغيرة الكبار» أن كل واحد يرى مصابه الأكبر لأنه لم يرَ الآخرين، فقد وصل بي الحال وأنني مريضة «إيدز» أن أحسد مرضى «إيدز» آخرين، لأنكم مرفوعو الرأس، لم تقترفوا عملًا قبيحًا، وانتقل إليكم المرض عن طريق ليس لكم دخل فيه، هذا ما يجعلني أشعر دائمًا بالدونية وأنكم أفضل وأنقى وأجمل مني، أنا يا سادة قد انتقل إليَّ المرض بما تخشون أن توصموا به، فقد كنت فتاة متحررة حد الضياع، لم أكن يومًا مستقيمة، كنت أتعاطى الحقن المخدرة، نعم كنت أفعل ذلك، كم تمنيت أن أعلن! لا أعرف لماذا بالتحديد! لكني أحتاج إلى أن أكون معروفة الماضي وأيضًا محبوبة، دائمًا أخشى أن لو عُرف عني ما اقترفته فسأكون منبذوة، حتى منكم مرضى الإيدز، لذلك كان لديَّ توجس دائم، فأردت أن أخرج ما بداخلي وأن أعترف فلا أخشى من شيء بعد ذلك، لن تصدقوني إن قلت إن ألمي الأكبر ليس «الإيدز» بل



هو طريقة انتقاله لي، كنت أود لو كنت مثلكم، لكنت واجهت كل العالم وقلت لهم أنا طاهرة مثلكم، أنا نظيفة مثلكم، بل أفضل منكم، ما كنت لأسمح لأحد أن يطعن في أخلاقي ولا في ديني ولا في شرفي، صحيح أن حادثًا قد تعرضت له لم يكن برغبتي، لكن مقدماته التي تفضي إليه من صنع يدي فليس عذرًا لي، أُطعن وأتألم عندما أسمع منكم أنكم تتألمون لأنكم ملتزمون والمجتمع يوصمكم بكل فعل قبيح، عندها أتذكر أنني من أصحاب تلك الأفعال القبيحة التي وصمتكم ووصمت نفسي بها، أعتذر إليكم جميعًا أنكم تؤاخذون بأفعالنا، وأغضب من ضعفكم تجاه من يقلل منكم، سامحوني.

أتمنى أن لا يكون للصدق ضريبة، أو أن أخسر بعض صداقتكم فأندم عليه، دعوا أفعالي وما أنا عليه، الآن فقط هي صورتي لديكم، لا تستدعوا حديثي هذا أمامكم وأنتم تحدثوني حتى لا يكرهكم فيَّ، فقط أردت لحظة اعتراف أكون فيها ذليلة؛ علَّ ذلك يكفِّر عني أو أتساوى بكم!

هكذا كان بوح أميرة «فراشة المتعايشين»، ذلك البوح الذي جعل المجموعة هادئة هدوء المقابر، الكل يتأنى قبل كتابة أي تعليق، يستوعب الأمر، يفكر في مفرداته جيدًا..

«بتول» قرأت المنشور ثلاث مرات، لا تصدق أن هناك من هو أشد حالًا منها! الآن فقط وجدت لها فضيلة وإن كانت ليست ظاهرة للناس، يكفيها أنها تعلمها عن نفسها والأقربين منها أنها لم تقترف خطأً أو فعلًا قبيحًا، وأنها ليست جانية، بل مجني عليها من مجتمع يوصم الجميع، في هذه اللحظات فقط شعرت «بتول» بألم أكثر من ألمها، وبحال أشد من حالها، الآن فقط خرج الحمد عن رضا منها أن إصابتها لم تكن عن فعل مشين.



لم تنتظر «بتول» التعليقات، ذهبت إلى «أميرة» تراسلها، ولأول مرة منذ خمسة أشهر تواسي وتدعم، وهي تحاول أن تقنع «أميرة» أن التوبة تمحو ما قبلها، وأنها مثلهن، شعرت الآن بقول «أميرة» إن الانشغال بدعم الآخرين ينسينا آلامنا الشخصية، وكأنها تحدرت عما فيها، أخذت بقلبها الحنون تطيب من خاطرها.

ما أجمل أن يُجبر كسر بفتات نفس مكسورة!

«بتول» المكسورة، تحاول أن تشد من عضد «أميرة»، تلك التي انهارت ولم تعد تستطيع الكتابة، فتوقفت عن المراسلة، فقد نبشت في ماضٍ كثيرًا ما حاولت البعد عنه واجتنابه!

كان لهذا المنشور كبير الأثر، ليس فقط على «أميرة» بل وعلى «بتول»، فقد توطدت علاقتهما للغاية بعد ذلك اليوم، لا سيما من بعد أن تحدثتا صوتيًّا عندما تعذر «الشات» عند انهيار حالة «أميرة»، فكلمتها «بتول» صوتيًّا بدلًا من الكتابة، اطمأنت «بتول» لصوت «أميرة»، وشعرت من صوتها بصدق وطيبة، فانساب الحديث بينهما في ذلك اليوم وتوالى في الأيام اللاحقة.

رُفعت الحواجز بينهما، وذهبت عن «بتول» التحفظات، فأفصحت عن اسمها وحكت كثيرًا لصديقتها الجديدة.

الخطوة تتبع الأخرى... كل الجمود في طريقه للين والتغير، اليوم الرابع «لبتول» على موقع التواصل الاجتماعي باسمها الجديد، أربعة أيام تسارعت فيهن الأحداث وتغيرت أشياء في النفوس.

في صباح ذلك اليوم الرابع، عندما انفك قليلًا سلطان «الإيدز» عن



«بتول»، تذكرت من لم تنسه يومًا، ولكن غشاوة «الإيدز» لا يُرى من خلفها!... تذكرت «عمر».

بحثت عن اسمه، ظهر لها، ما إن رأت صورته على حسابه الشخصي حتى فاضت عيناها بالدمع، تراه خلف شاشة مجرد صورة، وهو الذي كان لا يفارقها، اللعنة على ذلك «الإيدز»! اللعنة على الفراق!

وجدته على العهد، يناديها، يبحث عنها كل يوم، يناديها كل ليلة، ردت عليه بصوت مبحوح من البكاء يحجبه عنه فضاء إلكتروني وشاشات وأسلاك. ردت عليه: «عمر» أنا هنا، أريدك، أحتاجك، أحبك. لم تندم قط قدر ندمها على تلك الكلمة التي لطالما كانت تخجل من أن تخرجها وجعلتها فقط حبيسة أدراج وأوراق. آه لو تعود بها الأيام فتفصح! تبًّا لخجل أضاع عليها حلاوة ترديدها وأن تتزين بها شفاهها!

وكأن البكاء والحسرة قد كُتبا عليها! تخرج من بكاء لبكاء، بكاء على والدها، وبكاء على مرض، وبكاء على فراق حبيب، وبكاء إذا ما رأته!

حدثتها «أميرة»، سمعت بكاءها، فأقسمت عليها أن تعرف السبب، فقصت عليها.

ـ كيف يكون كل هذا الحب بينكما ولا تتحدثان؟! حدثيه، أخبريه مكانك.

ـ لا أستطيع، إن فعلت فأنا أفكر فقط في نفسي، سيكون بين خيارين كلاهما صعب، أن يتزوجني على ما أنا عليه، وهنا سيفارق والديه؛ لأنهما بالتأكيد سيرفضان ذلك الزواج، فهو ابنهما الوحيد، جاء بعد عمر كبير، كيف سيوافقان أن يتزوج من مريضة بالإيدز؟! الأمر شبه مستحيل، وإن



تركني فسيكسر الكثير بداخلي، لا أحب له ذلك الاختيار الصعب، لا أحب له أن يخذلني مضطرًّا، أو أن يلقي بنفسه إلى مجهول ويترك والديه من أجلي، آخر أيامي معه شعرت بألمه ووجعه، فآثرت الرحيل عنه عندما أردت أن أرحل عن الجميع.

«أميرة»:

ـ فقط مجرد كلام بسيط يطئمنه عليكِ ويسمع صوتك وتسمعين صوته.

ـ لا، مجرد حديثي له أهدم كل أموره، سيحاول أن لا يتركني وألا يترك أيضًا أهله، سيكون في حرج شديد، سيكون ألمنا أشد، الآن أعذره أنه لا يجدني، أما وإن وجدني أصبح عليه الاختيار بين مستحيلات، سأكتفي بأن أراه خفية من حسابه الشخصي وأرى كلماته فقط.





(٢٤)

«لن يجدي الفستان الأبيض إن كان يليه أيام سوداء»





اليوم الثالث من الفضفضة، الكل بانتظار «هبة أحمد» تلك التي تظهر باسمها الحقيقي وصورتها دون خفية أو خوف، في الموعد المتفق عليه كانت حاضرة بمنشورها:

ـ أنا «هبة أحمد» بدأت قصتي ببداية حبي لـ «حسام»، الشاب الذي من أجله انتظرت كثيرًا حتى يعود من سفره، تعلقت سعادتي بالارتباط به، كنت أرى كل الخير في أن يكون زوجي، كان دعائي اليومي أن أكون له ويكون لي، جاء القدر مواتيًا، نلت ما كنت أتمنى، مرت سنوات من زواجنا، لم تكن حياتنا كما كنت أتمناها وأتخيلها، أصبحت فاترة، خاصة بعد أن تأخر الإنجاب، وهو الشيء الوحيد الذي كنت أعوِّل عليه أن يأتي لي بفرحة، مرت خمس سنوات على زواجنا، زادت مشكلاتنا وتباعدنا، حتى جاء اليوم المشؤوم، اليوم الذي علم فيه زوجي بإصابته بـ«الإيدز» بعد وعكة شديدة دامت لأسابيع؛ الأمر الذي جعل الطبيب يطلب مني تحليلًا حتى يطمئن عليَّ، فإذا بي مصابة أنا أيضًا! كانت صدمة لا توصف، زاد منها اتهامه لي بأني نقلت له المرض، حتى جاء أحد أصدقائه والذي كان معه في سفره «لليونان» وقال له أن يتقي الله وينطق بالحقيقة ولا يتهم عفيفة، فأخبرنا صاحبه أنه كثيرًا ما كان يتردد في «اليونان» على أماكن ممارسة البغاء، وقد حذره أكثر من مرة من ذلك ومن عقاب الله له، وهو ما كان يقابله بعدم اكتراث.



في هذه الأوقات زادت صدمتي، صدمة أن من تُعلق عليه الأمنيات يكون سبب الانتكاسات. حفظت نفسي من أجله ويأتينى باللعنة، كنت أنتظر شقائي بانتظاري له، لن يجدي الفستان الأبيض إن كان يليه أيام سوداء، تعلمت ألا أفرح بما آتاني، لعل فيه الحزن والذل، وألا أندم على ما فاتني، لعل فيه الخير، نعم كان كل الخير في عدم الإنجاب، تلك الحكمة التي تيقنت منها بعد وقد كنت وقتها أسخط على عدم الخلفة، بتُّ أحمد الله بعد أن علمت حكمته، فكان سيأتي جنين مصاب بـ«الإيدز». انفصلت ورفضت العفو عنه، الله يعفو، فهو الكبير، أما نفسي فلم تطاوعنى، مرت عليَّ ثلاث سنوات من الألم والحسرة، حتى جاء الفرج والفرح، على يد «يوسف» متعايش «الإيدز» والذي تعرفت عليه عن طريق جمعية لمتعايشي الإيدز، تقوم بتزويج المتعايشين؛ الأمر الذي كنت أرفضه في البداية، فكان الزواج بالنسبة لى مقترنًا بـ«حسام» فقط وليس مطلوبًا لذاته، ولكن بعد عدة لقاءات ومقابلات تعارفنا وتقاربنا، لا يعلم من أين أتى له «الإيدز»، لكن حديثه وسمته كان مطمئنًا ويوحي بالصدق، انتشلني من بحار همومي وهو المريض، من بعد ما كدت أغرق من فعل من تقدم إليَّ معافى ـ أو كنت أظن ذلك ـ أتاني الخير كله ممن قد يبدو للجميع أنه شر، جاءتني الصحة عندما ارتبطت بذلك المريض مثلي، حفظه الله لي، نعم الزوج والصديق، هو من أعانني على الظهور باسمي، وقال لي: نظرة الناس إلينا نحن من نصدرها لهم بنظرتنا لأنفسنا. فواجهنا سويًّا كل الكون، فليس فينا ما نتوارى خجلًا من أجله.

لله في أموره تقدير، ونفوسنا عاجزة عن معرفة ما هو خير لنا وما هو شر لنا، ليس كل ما نتمناه في تحقيقه السعادة، وليس كل ما فاتنا ينبغي أن نحزن عليه.



انتهى منشورها، الذي أحدث حالة من التفاؤل بين ساكني «على قيد الحياة» أضاء لهم طاقة من نور، الكل يتوق أن يرزقه اللـه خيرًا من محنته، أو أن يعرف بعدُ مدى حكمة اللـه في الخير الذي سيجعل لسانه يلهج بالحمد. فكانت التعليقات :

«فراشة المتعايشين» أميرة:

ـ يا رب فرحة وأمل.

أما «بتول» فكان أول تفاعلها:

ـ أثلجتِ صدورنا.

«صغيرة الكبار»:

سعدت جدًّا بعزيمتك وقوتك... «انتظروا مفاجأتي المدوية بعد غد».

الكثير والكثير من التعليقات، حتى من الأعضاء الخاملين الذين اكتفوا فيما سبق بالمتابعة الصامتة والترقب خلف ستار.





(٢٥)

«كثيرًا ما نتسرع في الأحكام على الأشخاص والأشياء من استنتاجات لا تمت للحقيقة بصلة، نتعامل معها على أنها مسلمات لا مجرد انطباعات تحتمل الخطأ»





الجميع اليوم على موعد منتظر، اليوم الخامس من الفضفضة، الجميع يترقب، ليس لأن صاحبة اليوم «الرابع» قد اعتذرت أو تراجعت، لكن لأن اليوم فيه لغز لطالما حاولوا فكه، وشخصية لطالما كانت متخفية عنهم. اليوم يوم العجوز المسنة «صغيرة الكبار» ولو أن الكثير يظن أنها ستعتذر في الوقت الأخير.

في الموعد المحدد كانت حاضرة، فنشرت:

«مرضي جعلني مميزة جدًّا، ولا يوجد مثلي في بلدي مصر! وعلى مستوى العالم كان يوجد ثمانية، لم يتبق منهم سوى واحد، والأخبار تقول إنه ينازع وسيموت قريبًا، وسأكون أنا الوحيدة، ليس ذلك فقط تميزي، بل إنني أعلم موعد وفاتي تقريبًا وأعمل له، لكنكم أيضًا أفضل مني، أنتم قد تتعايشون مع «الإيدز» أما أنا فلا، قد تسيرون في الطرقات ولا يعرفكم أحد أنكم حاملون للمرض، أما أنا فلن يعرفني أحد من الأساس، نعم فقد طُمست ملامحي بعد بلوغي الشهر الثامن، فذهبت طفولتي وشبابي، أنا مميزة جدًّا لأن الرب اختارني من بين ملايين البشر لأكون نادرة! هكذا دائمًا أرى نفسي بذلك الجانب الإيجابي وأسعد بذلك كثيرًا، لن أطيل عليكم في غموض، فالأمر ليس لعبة ولا إثارة، هذه بالفعل صورتي التي أمامكم، تلك العجوز الشمطاء، التي تبلغ الثمانين



من عمرها. لا، بل أنا أصغر عضوة في المجموعة، أنا عمري أربعة عشر عامًا، أنا لست مريضة «بالإيدز» لكني كنت متابعة لصفحة فراشة المتعايشين، فعرفت عن طريقها «الجروب»، وجذبني اسمه «على قيد الحياة».

هناك الكثير على قيدها وليسوا أحياء، ولا يعلم عنهم أحد، هم فقط نوادرها وأمثلتها الشاذة عن القاعدة، والتي أنا منهم، أنا مريضة بمرض نادر جدًّا «البروجيريا» من بين ثمانية ملايين مولود قد يصاب مولود واحد به، وكنت أنا اختيار القدر لأكون ذلك الواحد بين ثمانية ملايين أو يزيد، المرض غيَّر ملامحي الطفولية بعد الشهر الثامن؛ حيث إن المرض يجعل صاحبه يكبر بمعدل ثماني سنوات في عام واحد، فأصبحت عجوزًا منذ طفولتي، كانت أمي تحملني، يظن الناس أنها تحمل أمها، لم أتمتع بلبس ولا بشكل، ولا أستطيع حتى التعايش بذلك إن رضيت، حيث إن متوسط عمر مريض «البروجيريا» ثلاثة عشر عامًا، أما أنا فقد سجلت حالة نادرة أخرى من بين حالات المرضى بأني تخطيت هذه السن، وكسرت الرقم القياسي السابق، يستغرب من يعرفني أنني بهذا الثبات، وأحيانًا المزاح على حالي، عندما أقول إنني سأسجل الميدالية الذهبية باسمي في هذا المرض، وسأكون رقمًا نادرًا للتاريخ! نعم أنا لم أمتعض يومًا من المرض، بل أشعر وكأنه جعلني حالة استثنائية، فأنا أنتظر موتي قريبًا جدًّا، فعملت لذلك، وعرفت أنني لن أُخلد كحال كل البشر، لكنهم ينسون ذلك، أما أنا فلم أنسَ يومًا، شعرت بحرية من كل شيء، لا أخاف على شيء يُسلب مني؛ لأن أعظم شيء سيُسلب مني قريبًا! ربما دخلت هنا فقط كي أقول لكم: هناك من هو أشد منكم، وأؤمن أن هناك من هو أشد مني، ليتني كنت مثلكم كي أخرج وأقابل الناس وألبس،



لكنت خرجت ولم أعبأ بإيدز ولا غيره، أرأيتم؟ هناك من يتمنى أن يكون مثلكم! هو أنا «دميانة صموئيل» دمتم بخير.

انتهى كلامها والذي أحدث حالة من الحراك بعده على «الجروب» وفي مرة نادرة حدث ما لم يحدث من قبل مع منشورات «صغيرة الكبار» حالة من التعاطف وشد الأزر، وبعض من الاعتذارات على سوء ردود سابقة من بعض الأعضاء.

كثيرًا ما نتسرع في الأحكام على الأشخاص والأشياء من استنتاجات لا تمت للحقيقة بصلة، نتعامل معها على أنها مسلمات لا مجرد انطباعات تحتمل الخطأ.

«بتول» كغيرها، في حالة من الذهول! عالم بالفعل غريب، ليس فقط لافتراضيته، وإنما لأشخاصه وما يحملون من هموم وظروف خاصة، كل ذلك عزز لديها شعورًا أنها ليست صاحبة البلاء الأشد في هذا الكون، شعورًا لن يرفع عنها حزنها، لكنه يخفف قليلًا من وطأته عليها.

مر شهران آخران، لكنهما أفضل حالًا من سابقيه، فثمة هدوء بدأ ينزل على قلبها، وثمة فراغ بدأ يتقلص بصديقتها، تتحدث معها كل يوم، وعالم آخر في «على قيد الحياة» تفاعلت مع ساكنيه، شاركتهم آلامهم وهمومهم، وأصبحت الآن عضوًا فاعلًا في المجموعة، تقدم كل يوم فقرة دينية، تتحدث فيها عن سير الصابرين على البلاء، وماذا أعد الله لهم، فقرة تصبِّر بها نفسها بصوت عالٍ قبل أن تكون موجهة لأعضاء «الجروب».

لكن مع بعض هذا الانشغال، إلا أنها ما زالت تراقب حبيبها من طرف خفي، قد همت في أحيان كثيرة أن تطلق يدها له بتعليق كإحدى



المتابعات الكثر، تؤمِّن فيه على دعوة له بأن يلتقي بحبيبته الغائبة، أو تدعو هي له على منشوره الذي أصبح معتادًا، يطلب فيه الدعاء من أصدقائه ومتابعيه.

حملت من صفحته كل صوره حتى تؤنس وحدتها في ليلها الطويل وهي تفكر فيه وفي أيامها معه، أصبحت صفحته هي مزارها اليومي المعتاد، تحدث الدخول عليها بين حين وحين؛ علها تجد جديدًا عنه.

«حياة» دبت فيها الحياة، فقد تغير حال ابنتها العزيزة، تتمنى أن يتغير أكثر، ومن ثم توافق على طلب والدتها العودة إلى منزلهما، الذي شهد أفضل أيام العمر، وإن كانت لن تُعوض، فقد انطفأ قنديل البيت وذبلت زهرته، كانت تصرف «حياة» من تلك الأموال التي يستودعها «زكريا» كل شهر في دفتر توفير «بتول»، تسحب منه عند احتياجها، هذه المبالغ التي يأخذها «زكريا» من المقاول على حسب اتفاقهما المبرم.

لكن هذا الشهر لا جديد مضافًا إلى الحساب، وبدأت الصرف من آخر خمسة آلاف كانت مدخرة في البيت، آخر ما تبقى من رائحة عرق «عادل». كان مودعها لاستكمال باقي قسط الشقة، عشرة آلاف جنيه.

لا شيء يهم طالما الابنة العزيزة تتماثل للشفاء، ذلك لسان حال الأم الصابرة، وأيضًا لهذه المشكلة ثمة حل قريب، عندما تنزل «بتول» للعمل في جمعية «أمل لإرشاد مرضى الإيدز» الجمعية التي تعمل فيها

«أميرة» وأقنعت «بتول» للنزول معها فيها، وذلك للاستفادة المعنوية الأكبر وقتل وقت الفراغ، ولتشعر أنها تعمل وتنجز وتفيد غيرها، لم تكن «بتول» مهتمة عند اقتراح «أميرة» لها بأمر المقابل المادي، على العكس، كانت زاهدة فيه وتريد فقط أن تغير من حالتها وتخرج، لكن «أميرة»



أخبرتها بأن المبلغ نظير للعمل، فهناك عمل ميداني شاق، ولو توقف الأمر عند التطوع بالوقت للعمل العام لن يكون إنجاز، فهذا عمل محدد بوقت، وليس فيه تهون، وهو عمل مؤسسي؛ لأن الجمعية تابعة لأخرى عالمية مهتمة بمرض «الإيدز» ويريدون من يعمل بانتظام وليس متطوعًا يأتي حسب وقته.

أما الآن، فحتى أمر المقابل المادي أصبح له أهميته عند «بتول» كغيره من الأمور المعنوية والنفسية التي تحتاج إليها بشدة، وتنتظر أسبوعها القادم الذي ستتسلم فيه العمل في الجمعية حسب ما أخبرتها به «أميرة».

ثمة أمور أخرى تحاول «أميرة» إقناع «بتول» بها بعد أن نجحت في أن تجعلها تترك عزلتها وتتحدث وتتفاعل، وفي الأسبوع القادم ستنزل معها للعمل وتخرج، لكن هناك أمورًا أخرى ما زالت ترفضها «بتول» وهي العودة للكلية واستئناف دراستها، والتواصل مع حبيبها، والذي رفضت حتى مجرد أن تقول اسمه لأميرة، أو تعرفها على حسابه على موقع التواصل الاجتماعي؛ خوفًا من أن تتواصل معه وتخبره بأنها صديقة لـ«بتول»، لكنها مقتنعة أن كل هذا سيحدث مع الأيام، فـ «بتول» الآن ليست «بتول» منذ شهرين، وتخرج رويدًا رويدًا من صدمتها إلى مرحلة التعايش؛ ومن ثم مرحلة المواجهة والرجوع للأهل ومحاولة التأقلم معهم على حالها.





(٢٦)

«لماذا ضحكاتها ونسيمها وبحرها لمن يأتي بالثمن والأموال للسياحة، ويضيق صدرها بمن يأتون لا حيلة لهم سوى جهدهم وعرقهم فتكون أجسادهم عندها مستباحة؟!»





ما زالت الإسكندرية عابسة في وجوه أبناء «اشليمة» يُنكل بهم على أرضها، وهم الذين أعطوها من أعمارهم وأصلابهم وقواهم، ما زالت تصر أن تكون لهم أرض نكد، قد أنهكت من قبل «عم صابر» وتركته عندما رق عظمه، شربت أرضها من دماء «عادل» وهو الذي أتى ليعمرها، لجأت «بتول» لأطبائها كي يطيبوها فنبأوها بـ«الإيدز»، تفتح مصايفها فقط للذين يأتون إليها في الصيف لحاجتهم ويتركونها في الشتاء وحيدة. لماذا تجفو على معمريها وكادحيها؟ لماذا ضحكاتها ونسيمها وبحرها لمن يأتي بالثمن والأموال للسياحة، ويضيق صدرها بمن يأتون لا حيلة لهم سوى جهدهم وعرقهم؛ فتكون أجسادهم عندها مستباحة؟!

لم تستحِ أن «عادل» قد لقي حتفه على أرضها، فأودعت «زكريا» في سجونها!

«زكريا» الذي أتاها هذه المرة على غير عمل، أتاها غاضبًا، فعلى حد قوله قد رضي بالهم، لكن الهم أبى أن يرضى عنه، ذلك الهم الذي ما زال يسكنه حتى بعد مرور هذا الوقت على وفاة أخيه، ما زال يشعر بغصة وأن حقه قد أُهدر عندما شهد أن أخاه قد أهمل في العمل، لكن ذلك كان يهدأ عندما يتسلم الراتب الشهري ويضعه في حساب «بتول» ويسأل



عن الحساب الإجمالي فيعلم أنه سُحب منه، وأن تلك الأموال تذهب إلى «بتول» وأمها، وثمة استفادة من شهادته التي دائمًا ما تؤرقه وتشعره بالذنب تجاه أخيه، تلك الأموال فقط العمل الوحيد الذي يصبِّره على عدم العثور على «بتول» وأمها حتى هذا الوقت.

المال الذي كان يودعه في حساب «بتول» فقط هو جهده الذي خفف عنه وطأة الشهادة، وعدم إيجادهما، أما وإن توقف، فقد استدعت ذاكرته كل هذه المآسي وعدم رضاه عن نفسه، ظهر ذلك عندما تأخر «صالح» المقاول في إرسال الراتب المتفق عليه كل شهر، وعندما هاتفه «زكريا» تعلل بظروف وأنه سيرسلها، ثم بعد ذلك ما عاد ليرد، ذلك ما استشاط منه «زكريا»، وشعر أن أخاه بالفعل قد أُهدر حقه وأنه سبب في ذلك عندما رضي بالقليل، وحتى هذا القليل قد مُنع عن أسرة أخيه الآن، بعد تفكير وتنامٍ في كتلة الغضب بداخله، عزم أن يذهب إليه في الإسكندرية وقد علم مسكنه وقت وفاة أخيه عندما ذهب له أكثر من مرة.

عقد العزم على الذهاب وبداخله حمية وغضب، وهو ما قابله الأخير برعونة واستفزاز ولم يمتصه بقوله إن حالته الآن أصبحت لا تجعله يستطيع دفع المال المتفق عليه حاليًا، وقد يمتد الأمر لعدة أشهر حتى يتحسن حاله، وأنه قد صرف الكثير ولم يقصر، ودفع مبلغًا من المال دفعة واحدة، المبلغ الذي جعلوه في حساب «بتول» في البنك.

طريقته وردوده المستفزة زادت من حدة «زكريا» عليه، فتبادلا السباب أم منزل الرجل حتى تشابكا بالأيدي، هنا لم يشعر «زكريا» بنفسه وهو صاحب الجسد القوي، وصورة أخيه تلوح له بالأفق وهو مضرج في دمائه، وابنته المسكينة وما حدث لها، فأخذ يكيل للرجل اللكمات،



ثم ضربه بعصا قد أخذها منه قد التقمها الرجل من الأرض يدافع بها عن نفسه، ضربه على رأسه حتى شُجت، واجتمع أهل المنطقة وأمسكوا به واعتدوا عليه ثم سلموه للشرطة، والتي احتجزته حتى يخرج تقرير المستشفى عن حالة الرجل، والذي ظهر بارتجاج في المخ من أثر الضربة، وكسر في الأنف من اللكمات، وهو ما سُجن على أثره، ليخيم الحزن على المنزل الثاني في هذا البيت، بل على القرية بأسرها التي فقدت اثنين من أهم رجالاتها، وتظل الإسكندرية في ترفها وصخبها وازدحامها، لا يبالي أحد بما حدث لتلك الأسرة البسيطة في مكان ما بعيد، أو ربما لا أحد من أهلها من الأساس يعرف «اشليمة»!





(٢٧)

«لا أمل في الأفق، إذن فلنرفع الألم عن الآخرين»





كان الأب يراهن على تداول الأيام وفعلها، لكن رهانه لم يفلح، ولا نتيجة بعد مرور ثمانية أشهر، بل كل النتائج عكسية، فلم ينصلح حال «عمر» وازداد شقاقه مع والدته إلى الحد الذي أعياها وتدهور صحتها وهي التي تعاني من السكر والضغط، فلم يجد بُدًّا إلا أن يجلس مع ابنه ويتحدثا سويًّا، وهو ما كان يؤجله، لكن الأمر ازداد تعقيدًا بين الأم وابنها وحالهما لا يسر أبدًا.

جلسا سويًّا، حدثه والده أنه تركه كل هذه الشهور ولم يتدخل في الأمر، ولا تحسن في الأفق، بل كادت الأم تضيع عندما ارتفعت نسبة السكر والضغط، وسقطت مغشيًّا عليها بعد مناقشة احتد فيها كل منهما على الآخر وما زالت الأم طريحة فراشها مريضة.

قال له:

- ابني العزيز، قد طاوعتك وذهبت معك لخطبة «بتول» عندما رأيت حبك الشديد لها، وقفت معك على أمك لأني كنت أرى في ذلك سعادة لك وصلاحًا، أما الآن فالأمر قد تغير، أنت تنتظر مجهولًا، وحتى إن عثرت على «بتول» مرة أخرى اعذرني إن قلت لك لن تتزوجها، فهذا قتل لأمك. هل تقدر على ذلك؟! أنت ابننا الوحيد، أملنا في الحياة، نتمنى أن نراك سعيدًا وأمك أيضًا كذلك، هوِّن عليك يا بني،



أنت لم تقصر مع «بتول» ولم تبعد عنها، ووقفت معها للنهاية، والآن أتمنى أن تقف مع والدتك، كنت أعارضها كثيرًا في تحكمها، لكن الأمر الآن اختلف، حالك أصبح يبكيها، أنت لها كل الدنيا، لن تقوم من مرقدها إلا بفعلك، أنت وحدك قادر على أن تجعلها تتجاوز أزمتها، أمك تحبك جدًّا، لا تكن سبب وفاتها أو قهرها أو بكائها، أتمنى أن تفعل من أجلها، فقط حتى وإن لم تقتنع، ألا نستحق أن تفعل من أجلنا شيئًا يسعدنا؟ إن كنا لا نستحق سأخرج ولن أحدثك مرة أخرى، أيعجبك حال والدتك العزيزة أن تعذبها بأنها تحبك؟ أنا أترجاك لأول مرة وأطلب منك ولا أجبرك، والدتك تخشى أن تذهب دون أن تفرح بك، وأنا أيضًا في الحقيقة، أمك مريضة ولا تستحق منك كل هذا، ثم إنك كنت على أعتاب الزواج، ورغم عدم رضائها عن العروس، كانت سعيدة ومهتمة بكل التجهيزات، وكانت تتابع شقتك ومراحل تشطيبها بكل شغف، كل ذلك توقف فجأة وأصبحت ترفض الحديث عن أمر الزواج مجرد الحديث، وكل احتياجات الزواج مكتملة، وهو ما أحزنها وخشيت أن تظل عقدتك وترحل دون أن تسعد بك.

حديث كان كالسياط، يلهب روح «عمر»، لم يعتد من والده مثل ذلك الحديث والرجاء، حمله على عاتقه سبب رقاد الأم وتدهور حالتها، أصبح «عمر» بين شقي رحا، الاختيارات كلها مرة، وكلها صعبة، وكلها لن تسعده، بعد تفكير عميق وتردد وحيرة وتراجع، اختار ألا يؤذي أمه أو يكون سببًا في أمر يندم عليه بقية عمره، اختار أن يحزن، هو لا يهم، لكن لا يتحمل بكاء أمه أو غضب والده عليه، لا أمل في الأفق عن «بتول» فعليه أن يعمل لأمه التي بين يده وإن كلفه ذلك حسرة على حسرته.

ذهب إلى أمه المريضة من أثر مشاجرتها السابقة، قبَّل قدميها واستسمحها،



ووعدها أن كل شيء سيكون كما تحب، وستسمع ما يسرها منه في الأيام المقبلة.

بعد أيام من ذلك، وبعد أن تماثلت الأم لبعض الشفاء، فاجأها «عمر» قبل أن تحدثه، بأنه فكر في الأمر ومقتنع بالزواج من ابنة خاله، انبسطت أسارير الأم وكأنها أخذت كتابها بيمينها، فكم انتظرت حتى تسمع ذلك الخبر!

على الفور هاتفت أخاها الذي كان بينهما حديث سابق في الأمر، وكان ينقصهما فقط موافقة «عمر» وقد كانت.

على عجل كانت الخطبة بعد أسبوع، والزواج لا يحتاج إلى أكثر من شهر حتى يتم، فلا حاجة لفترة خطبة أو تعارف، فكلاهما يعرف الآخر تمام المعرفة، وشقة «عمر» جاهزة، وباقي الاحتياجات تأتي بالمال، والمال متوافر عند الطرفين، فلِمَ التأخر والانتظار أكثر من ذلك؟!





(٢٨)

«تخشى من الفرحة أكثر من الحزن، فكل فرحة أو محاولة للفرحة تأتي بعدها ضربة تقصم الظهر»





أخيرًا تلاقتا.. بعد أيام خلف شاشة وأسماء وهمية، وبعد ساعات طويلة من المحادثات الكتابية والصوتية تلاقتا على أرض الواقع من تعارفتا في فضاء إلكتروني، كان اللقاء الأول في بيت «بتول» أتت إليها «أميرة» (فراشة المتعايشين) كي تراها رؤية العين وتحدثها عن العمل والجمعية، ملائكية الوجه، جميلة المحيا، رقيقة السمت، ما زالت تلك صفات «بتول» بعد شهور من الوجع واليأس، هكذا رأتها أميرة في زيارتها الأولى، بينما «هي» فراشة بحق، لا أثر عليها من ألم وإن كان يسكن بداخلها، لكنها ما زالت قادرة على أن تصدِّر للناس سعادتها وضحكاتها، شعرها منسدل على كتفيها حرًّا، قصيرة قليلًا، وجهها قمحي اللون، ذات نغزة في ذقنها، ترتدي بنطال جينز فوقه بلوزة.

في هذا اليوم دار بينهما حديث طويل، على عكس العادة كانت «بتول» فيه صاحبة المبادرة حتى حان وقت السؤال المفترض عن حياة وأسرة «فراشة المتعايشين» أميرة.

ـ أسرتي... لم أشعر بذلك الرباط من قبل، حتى وأنا بين أمي وأبي وأخوي، كنت أظن أن ذلك قمة التحضر والحرية، كل منا يفعل مايحلو له، خاصة وقد ولدت في فرنسا، كان يظن والدي أن مهمتهما تتلخص في أن نتعلم تعليمًا راقيًا وأن نكون بصحة جيدة، لم أكن على قدر تلك الحرية،



ولم أجد حينها من يوجهني، كنت كثيرة السهر واللهو مع أصدقائي، هناك من العرب والفرنسيين، كانت جل نصائحهما لي أن أقلل من السهر أو الشرب حفاظًا على صحتي أو خوفًا من أن أرتكب شيئًا وأنا في حالة غياب عن الوعي، ملذاتي تقودني، لا دين يعصم، ولا عادات تمنع، ولا أبوين يحاسبان حتى لا يتعديا على حريتي فقط يستكفيان بأن أبعد عما يؤذي صحتي أو الآخرين، لم أنزل «مصر» إلا ثلاث مرات في زيارات قصيرة مع والدي لعائلتهما وقضاء بعض الأيام في شقتنا في «زيزينيا» في الإسكندرية، كنت أحب شابًّا جزائريًّا في «فرنسا» كان أحد أصدقائى الذين أسهر معهم يوميًّا، مررت معهم على معظم أصناف المسكرات والمخدرات، لا أقول إن الكل هناك هكذا كما تظنون هنا، ولكن هذا هناك مقبول ومقنن بشكل ما، فقط ما كنت أحافظ عليه بينهم هو عذريتي، كان ثمة شيء بداخلي شرقي يأبى دون ذلك، وكثيرًا ما أراده حبيبى مني، لكن شرطي كان الزواج، لا أعرف هل معرفتي السطحية بديني وقفت فقط عند حرمة الزنا أم على الرغم من غربيتي إلا وكانت تظهر نظرتي الشرقية التي تختزل هتك الشرف في هتك غشاء وما دونه قد يتقبل ما لم يمسسه سوء؟! في إحدى سهراتي الماجنة مع أصدقائي وحبيبي في منزل لصديق لنا بعدما ازدادت حدة سكرنا تعرض لي حبيبي، ولكن ليس ككل مرة أصده فيها، ولم يكن وحده، كان معه بعض الأصدقاء، تهجموا عليَّ جميعهم وكانت حالة اغتصاب جماعي، تناوبني فيها الجميع وهم في حالة جنونية وهياج من طريقة رقصنا، قد علمت بعد ذلك أن الأمر كان مرتبًا، ليس من أجل اغتصاب فقط، ولكن للاحتفال فيما بينهم بفض عذرية الفتاة العذراء الوحيدة بينهم، كانت صدمتي في هذا الحبيب كبيرة، لكنها كانت سذاجة أكثر منها صدمة، فلماذا يحافظ معي



على عهد؟ وما هو دافعه على ذلك؟ فلا دين ولا عادات، ولا حتى كما نقول هنا حامية رجل، جماعة لا يجمعهم سوى الرقص والسهر والسكر، كان لا بد أن أكون متوقعة نهاية مثل تلك، أعيد عليكِ أن الجميع هناك ليس كذلك، لكن للأسف الكثير من الشباب العربي عندما يصاحب لا يتقرب إلا لهؤلاء، خاصة إن كان آتيًا من انغلاق وحدود، وصاحب نفس غير سوية تنتظر فقط أن تجد المناخ الملائم، من المفترض أن أكون لست كذلك، فليس لديَّ ممنوع يكون مرغوبًا، لكن ذلك الصديق الذي ظننته حبيبًا كان طريقي إليهم، على عكس المتوقع بعد ذلك، أن يكون الجنس طريقي ومتعة تضاف إلى طقوسي، لكن طريقتهم معي جعلت حاجزًا بيني وبينه، بل عقدة منه، فبجسدي بعض العلامات والكدمات من ذلك اليوم، لكنني فارقت أولئك الصحبة بغيرهم لم يكونوا بأفضل حال، كان فقط رد فعل أسرتي هو الإبلاغ عن هؤلاء الشباب لتعديهم على جسدي غصبًا، وهو ما ألحق بهم السجن، لم يتغير حالي بعد هذه الواقعة للأفضل، بل زاد تعاطيَّ للمخدرات بأنواع مختلفة، وكنت لأول مرة أتعاطى الحقن، لعل أمر الحادث كان له أثر في ذلك، ربما كي أنسى ضرره النفسي، أو ربما ما عاد شيء يُخشى، بعد وقت مللت تلك الحياة وهذه الحالة، فانتهزت فرصة نزول أخي الأكبر لمصر كي يقيم مطعمًا سياحيًّا كاستثمار، فنزلت على أن أعمل معه ونكون سويًّا في شقتنا في «زيزينيا» الأمر الذي لم يكن صعبًا أن أفارق والدي، فكنا بالفعل في فرقة وشتات، كل منا في حاله، وقلت في نفسي إنها تجربة، لعلي أجد مناخًا أفضل وإن لم أسترح فسأعود إلى «فرنسا» بعد وقت لي هنا بدأت تتوالى عليَّ الوعكات، كنت أظنها أنها بسبب بعدي عما كنت أتناوله، وإن كنت أشرب بعض الخمور هنا؛ الأمر الذي زادت حدته وزرت من



أجله الكثير من الأطباء ولم يجدِ نفعًا، حتى شككت بـ «الإيدز» لمعرفتي السابقة به؛ حيث كانوا يحذروننا منه نحن أهل الهوى والمخدرات، هناك لا يمنعون، فقط يحذرون من العواقب الطبية ويرشدون، ولكن كيف لنا أن نتبع تعليماتهم ونحن دائمًا غائبون تحت تخدير تلك المغيبات؟! على الفور أجريت تحليلًا، وكانت الصدمة أنني مصابة! رغم فعلي لكل ما من شأنه أن أصيب، لكنها كانت صدمة، كل الأفعال كانت تؤدي له، خاصة الحقن وأيضًا تلك الحفلة الجنسية التي أقيمت على جسدي، لعل أحدًا منهم كان مصابًا، فقد مارسوا هذه الأفعال مرارًا، مررت بعدها بصدمة مثلك، لكن كما قلت صدمتي الأكبر عندما التقيت بكم وعملت في مجال إرشاد مرضى «الإيدز» فكان كل خوف المرضى من المصريين هو صورتهم أو وصمهم بالعار، أما أنا فكانت صدمتي الأولى أنني مريضة وذلك سيعجِّل بوفاتي وأنا محبة جدًّا للحياة، وقتها فقط عرفت الشرف منكم ومدى التزامكم، فهانت عليَّ الحياة التي كنت أخشى الرحيل عنها، وحزنت على أيام مرت عليّ قضيتها في سفور وتيه وغياب عن الواقع، تمنيت وقتها أن لو كان عليَّ بعض السياج والحساب أو بداخلي شيء من وازع أخلاقي أو ديني، أو عادات تحول بيني وبين تلك الحياة البهيمية التي كنتُ عليها، الآن ما زلت أعيش مع أخي منذ علمي بإصابتي.

حديث طويل، لم تقطع «بتول» تدفقه بمقاطعة أو استفسار، فقط يدور في نفسها أن المعاناة جمعت بين الأضاد، جمعت بين نقيضين قد تجمعا تحت مظلتها «بتول» الملتزمة المحافظة، و«أميرة» المتحررة!

بعد هذا اليوم توالت المقابلات واللقاءات في الجمعية، وبدأت حياة «بتول» تتغير تغيرًا ملموسًا وإن لم يكن كسابق عهدها، ولكنه إنجاز كبير على ما كان من قبل.



ذهبت مع صديقتها بعد أن نجحت في إقناعها بالذهاب إلى الطبيب المتخصص في متابعة المرض حتى يتم التحكم فيه ويحسن تعايشه معها.

توالت عليها أيام أصبح حالها فيها أفضل، شيء واحد لم يتغير، هو مرورها الدائم على صفحة «عمر».

الأمر الذي كان يسعدها ويحزنها، يسعدها لرؤية صورته وأنه ما زال يتمناها، ويحزنها عندما تتذكر أيامها معه، تتمنى أن تعود وتكون بجواره فتغالبها دموعها.

وفي إحدى زياراتها لصفحته، كانت الطعنة التي لم تكن تتوقعها، ولكن أي من طعناتها توقعت بها! صفحة «عمر» مكدسة بالتبريكات والتهاني على خطبته، وإن كان هو لم يعلن على صفحته، لكن الكثير قد شارك معه صورًا لخطبته.

وكأن مكتوبًا عليها أن تُكسر نفسها ويوجع قلبها، ليس لعينها راحة من بكاء، ما لهذه الحياة وما لها!

قضت ليلة بكاؤها لم ينقطع، تذكرت «أمها» بهذه الليلة العصيبة، أيامًا كانت تظنها قد رحلت، انهارت في وقت كانت تستعيد بناءها.

علمت «أميرة» بما حدث لها، جاءت إليها في الصباح، فوجدتها في حالة يرثى لها.

حدثتها:

أولم تكوني تتوقعين هذا؟ أنتِ بعدتِ عنه، ولا يعلم عنكِ شيئًا وقلتِ من قبل إن زواجكما مستحيل.



ـ نعم أعلم ذلك، لكني لا أستطيع أن أراه لغيري، مع علمي بأنه لن يكون لي، لا أدري، هل هذه أنانية مني! لكني كنت أبتعد عنه لصعوبة الموقف، والآن لا أتحمل أن يكون لغيري، نداؤه لي كل يوم كان يحييني رغم فراقنا، لكني كنت أشعر أنه ما زال معي، ربما لأنه كان ينتظرني، الآن لا أمل لي في الحياة، كان هو آخر أملي، لا أدري كيف وهناك استحالة للرجوع!

انتكست حالتها مرة أخرى، ما تلبث أن تكون في راحة لأيام حتى تقابلها الحياة بنائبة، قل نشاطها مرة أخرى، تذهب يومًا للجمعية وآخر لا، حتى انقطعت بعد ذلك، لم تعد تهتم بأمر الطبيب ولا العلاج الذي أمرها بالمداومة عليه؛ حيث كادت حالتها تقترب من حالة «الإيدز» الوسطى بظهور الحزام الناري الذي على ظهرها وبطنها، وهو من أهم علامات المرض في مرحلته المتوسطة.

أرهقت والدتها وصديقتها في أمر العلاج، ظلت كذلك تارة تأخذه وتارة لا، ما عادت تخرج، وتركت الجمعية. كانت تأتيها صديقتها كثيرًا وتتحدث معها كثيرًا لتعيدها إلى ما كانت عليه، لكن دون جدوى، قد أحبطت واكتأبت من كل شيء أصبحت تخشى من الفرحة أكثر من الحزن، فكل فرحة أو محاولة للفرحة تأتي بعدها ضربة تقصم الظهر، وما عادت تتحمل.

ومن بعد أن كانت تجد سلوتها في مرورها على صفحة «عمر» أصبحت تبعد نفسها عن المرور عليها حتى لا تُكسر نفسها من تلك الصور الكثيرة على صفحته.



(٢٩)

«حياة ليس فيها سوى ألم وحسرة، هل الموت فيها مصيبة؟!!»





«على قيد الحياة» لم يعد كما هو، قد تأثر ببعد «بتول» وهي صاحبة الفقرة المنتظرة والتي كانت تخفف عن الجميع والتي بدأتها فقط من بعد منشور «هبة أحمد» وما أحدثه في نفوس الأعضاء من تفاعل، فأرادت أن يستمر ذلك الشعور لديهم، الآن هي لا تستطيع أن تزيح عن نفسها ما أهمها، ومما زاد هدوءه أيضًا قلة دخول «أميرة» فراشة المتعايشين، فحال صديقتها قد شغلها عن الجميع وأغلب الوقت معها.

مع هذا السكون وقلة التواجد، لم يشعر أحد بعدم وجود «صغيرة الكبار» على «الجروب» فقط «ملكة الأحزان» قد نشرت أكثر من منشور تسأل عنها وتطالبها بالرد إن كانت متواجدة، ربما هي الوحيدة التي افتقدتها، فلطالما كانا يتشاكسان قبل أن تعلم حقيقتها في منشور الفضفضة، ولطالما نهرتها وطالبت بخروجها من «الجروب»، اليوم تفتقدها، تسأل عنها لأنها تعلم أن المفقود هاهنا ربما يتعرض لوعكة، أو ربما مات! فكلهم مرضى.

ظلت «ملكة الأحزان» تنشر لأيام متتالية ولا رادَّ ولا مجيب، فقط من يعلق يكتب علامة استفهام، ينتظر ردًا،

حتى نشرت إحدى العضوات خبرًا من جريدة «اليوم السابع» تاريخه من أسبوع قد مضى:



«وفاة الحالة المصرية الوحيدة لمرض «البروجيريا» «دميانة صموئيل».

ماتت الصغيرة قبل أن تحيا، ما منعها عن الرد سوى الموت، فقد كانت أنشط العضوات، تشارك في كل المناقشات والأسئلة، فمعذرة لها على عدم الرد، فقد ماتت!

ذلك الخبر السيئ كان له بالغ الأثر على «بتول» كما كان على كل صديقاتها، فزاد الخبر من رغبتها في العزلة وكراهية الحياة، الحياة التي لم ترَ منها سوى الألم والحسرة والحزن.

تعزز ذلك، وخبر زواج «عمر» نُشر على صفحته أنه غدًا، فلماذا تتمسك بحياة لم تعطها شيئًا، حياة رفضت «بتول» وحرمتها من كل شيء؟!

تركت الدواء، فليس لها حاجة في البقاء، تركت نفسها للمرض بطيب خاطر، لم تفارقها «أميرة»، كانت تزورها كل يوم، وكل يوم تدهور جديد في حالتها، وجهها الجميل قد طالته لفحات المرض، تتأخر حالتها يومًا بعد يوم وما زالت ترفض الدواء، تترجاها أمها وتحدثها:

- حبيبتى.. بالله عليك تناولي دواءك فحالتك تتأخر.

- ولماذا يا والدتي أتمسك بالعيش؟ هل تعجبك حالتي؟ الموت نجاتي من تلك الحياة المقيتة.

- أنتِ هكذا تقتلين نفسك يا «بتول» وتنتحرين، هل تحبين ذلك يا حبيبتي؟!

- أنا لا أقتل نفسي، أنا أذهب عن حياة لا تريدني، لماذا أتمسك بها؟ المنتحر يكفر بالله، وأنا أحبه وأعلم أنه سيكون أحن عليَّ من الدنيا.



ستون يومًا قد مرت، أخذ كل يوم منها شيئًا، نقص وزنها بشكل ملحوظ، بدا عليها الإعياء الشديد، زادت مساحة الالتهابات، ظهرت بقع على لسانها، كل تلك الظواهر من أعراض المرض الشديدة التي تنبئ بمرحلة أخرى.

أصرت «أميرة» على نقلها إلى المستشفى، وهو ما كانت ترفضه «بتول» لأيام كثيرة قد مرت، لكن الأمر ساء، فأقسمت عليها وأمها أن تذهب إلى المستشفى.

ذهبت بها «أميرة» إلى مستشفى حميات الإسكندرية، وهي المستشفى المتخصصة في تلك الحالات، أجروا لها تحليل cd٤ للاطمئنان على جهاز المناعة، فإذا بالمرض قد قضى عليه تمامًا وقد دخلت مرحلته الأخيرة، ذلك ما نبأ به الطبيب «أميرة» وأنها لا بد وأن تُحجز حتى يتعاملوا مع أي تطور قد يحدث، خاصة وأنها معرضة لكل الأمراض الانتهازية التي تأتي في هذا الوقت من المرض مستغلة تهاوي جهاز المناعة.





(٣٠)

«لا ليست تلك النهاية، لا بد من نهاية أخرى لا نعلمها، لا بد من فرحة لكل من تعذبوا على ظهر الأرض، لا بد من عدل لكل من ظلموا على الأرض، لا بد من جنة لكل من كووا بنار الأرض»





شهر من الحجز ولا جديد، بل ساءت صحتها، أمها مرافقة لها، وأميرة تأتيها كل يوم، كل تحليل يجرى ينبئ أن الحالة تتجه للأسوأ، أمها تتوجع وهي ترى ابنتها تتفلت من بين يديها ولا تستطيع حيلة، أما «أميرة» فقد وجدت أن الحل نفسي وليس دوائيًّا، ولا بد أن تصل إلى حبيبها بأية طريقة، حتى لمجرد أن تراه ويراها، ولا بد أيضًا من أن يعرف عمها وابنه وزوجته بحالها حتى يكونوا بجوارها، ولكن كيف ستصل إليهم؟!

فـ«بتول» ترفض رفضًا قاطعًا هذا وترفض أن تعطيها أية معلومات، خاصة بعد أن بدت لها بعض نوايا «أميرة». لا حل إذن إلا من أمها. في اليوم التالي لزيارتها، استغلت «أميرة» غفوة «بتول» وأخذت أمها إلى الخارج، وأخبرتها بما تنوي، فأخبرتها الأم أنها لا تعلم سوى بيت عمها لأنه بيتهم، لكن «عمر» لا تعلم أين يسكن في الإسكندرية، وزيارتها الوحيدة له كانت مع «بتول» ووالدها، ولا علم لها بالمناطق، عرفت منها «أميرة» معلومة دون أن تدري أن خطيبها اسمه «عمر»، ربما يكون لهذه المعلومة دورها في الأيام القادمة.

لكن الأم رغم ذلك رفضت أن تعطيها عنوان عمها، خشيت أن يكون لذلك نتيجة عكسية على «بتول» فقد أخذت عليها عهدًا، وكثيرًا حدثتها عن العودة إلى «اشليمة» كانت تبكي وترفض بشدة.



الأيام تمر ولا جديد سوى تدهور يزداد، معلنًا دخول «بتول» مرحلة المرض المتقدمة بكل أعراضها، فاستباحات الالتهابات الجلدية كل جسدها، وانهالت عليها الأمراض الانتهازية، وازدادت إغماءاتها في اليوم والليلة، وأمها تفجع مع كل إغماءة حتى تفيق، توخزها آهاتها، تلهبها أناتها.

أما «أميرة» فقد عاودت الكرة إلى أمها، التي باتت تتعلق بأي أمل ينجد ابنتها فوافقت على الفور، وأعطت لها عنوان عمها، للتو ذهبت «أميرة» إلى هناك وسألت عن المنزل حتى وصلت إليه، وهناك لم تجد سوى «يحيى» وأمه، حيث الأب ما زال مسجونًا، أخبرتهما بما حدث لـ«بتول» فأصرا أن يذهبا معها، فلطالما بحثوا عنهما كثيرًا وتمنوا أن يعرفوا عنها وأمها أية معلومة.

سألتهم «أميرة» عن «عمر» فأخبرها «يحيى» أنه يعلم مكان مكتب والده، وأيضًا صديق له على موقع التواصل الاجتماعي، فكان دائمًا ما يسأله عن «بتول»، حبذت «أميرة» أن تتواصل معه إلكترونيًّا أفضل، وأن تكون زيارتهما لها في الغد أفضل حتى تتواصل مع «عمر» ويأتي الجميع لزيارتها وتكون مفاجأة كبيرة وهو ما رحب به «يحيى» وأمه.

عادت «أميرة» إلى الإسكندرية مساءً، وعلى الفور فتحت حاسبها وبحثت عن «عمر» ووجدته سريعًا من كثرة أصدقائه ومتابعيه، ومن صورته التي دلها عليها «يحيى» ففوجئت بأنه قد انفصل عن زوجته منذ بضعة أيام فقط، أي بعد ثلاثة أشهر على زواجه، علمت ذلك من تحديث معلوماته والتي عدلها إلى مطلق، والتي انهالت عليها التعليقات تبدي له الحزن، وكأن القدر يرتب لأمر ما، فقد كانت تنعي هم زواجه، وأنه



عريس جديد، كيف تذكره بحبيبته الأولى فتكون سببًا في خراب بيت؟! لكن القدر هذه المرة أتى موائمًا.

أرسلت إليه رسالة طويلة، أخبرته بما وصلت إليه «بتول» من حالة متأخرة جدًّا ولا بد أن يسرع حتى يراها، لربما تتحسن حالتها التي أصبحت تقضي أكثر الوقت في إغماءات.

رأى الرسالة ليلًا، من فرط الفرحة كاد يذهب إليها للتو، ولكن كيف سيدخل المستشفى، وكيف سيحقق ما عزم عليه وما انتواه في هذه اللحظة؟

في صباح اليوم التالي اتصل على صديقة «بتول» «هناء» ونبأها بما عرف، ودعاها كي تحضر اليوم للمستشفى في الساعة الخامسة.

دقت الخامسة، فإذا بالكل من حول «بتول»، إلا «عمر» لم يأتِ بعد، استفاقت من غيبوبتها على وجوههم، جميعًا يبتسمون في وجهها، وهي تنظر إليهم في لهفة، لكن صحتها لا تساعدها للقيام لاحتضانهم جميعًا، تتحدث إليهم بصوت أنهكه المرض، وصدرها يعلو مع كل كلمة بأنفاسها، في هذه الأثناء إذا بـ«عمر» يدخل عليهم ببدلة سوداء أنيقة، وبجواره رجل يحمل دفترًا كبيرًا، يبدو وكأنه مأذون، ما إن دخل حتى انكب عليها يقبِّل رأسها وقدميها ويبكي وينتحب فوق كتفها، وهي تتلهف عليه وتبتسم وتبكي، تردد اسمه بأنفاسها، لا تستطيع استيعاب ما بها! هل هذا كابوس طويل قد انتهى اليوم، أم أن اليوم نهاية حلم جميل؟! يبدو أن نفسها وقلبها لم يتحملا هذه الفرحة الكبيرة، فدخلت في نوبة إغماءة، بعدها على الفور توجه «عمر» إلى الطبيب يسأله عن الحالة، فأخبره أن الحالة سيئة للغاية وأن أيامها باتت معدودة، أصر «عمر» على تواجد المأذون حتى يكتب



عليها ويتزوجها ولو ليوم واحد، ينال هذا الشرف، ولسان حاله يقول: «لن ترحل بتول قبل أن تكون زوجتي».

بعدها بنصف ساعة وبعد أخذها لبعض الحقن عاد إليها وعيها، وتردد ما غابت عليه اسم «عمر». في عجلة جلس «عمر» بجوارها وأشار إلى المأذون «ويحيى» كولي واثنين من الأطباء شهود، وفي عجلة تمت مراسم العقد، وبصمت «بتول» بيدها المرتعشة، ثم أشارت إلى «عمر» أن يتدلى إليها، فأمسكت بكتفيه وأعلنت له بصوت يكاد يسمع ولأول مرة: «عمر» أحبك أحبك.

فإذا بكل الحضور يصفق، فأخذت ترددها وكأنها تطلقها بزفراتها، حتى أصبحت تبدو فقط على شفتيها وهي تحركهما دون صوت، ظلت كذلك حتى دخلت في نوبة إغماءة أخرى.

ظل «عمر» بجوارها ينتظر استفاقتها التي طالت وقد دخل الفجر وما زالت على حالتها.

فجأة انهمرت السماء بالبكاء، وتغير حال الجو دون مقدمات بشتاء غزير مصحوب بطلقات الرعد الشديدة.

فإذا بجهاز ضربات القلب المتصل بها يتوقف، لتصعد إلى السماء أول الملائكة الإناث، تُزف روحها بالرعد في وقت غيمت فيه الأرض، فقد توارت عنها شمسها.

وكأن روحها كانت معلقة تنتظر «عمر» حتى ترحل، فكان موتها عرسًا.



عندما يكون الموت هو طوق النجاة من الحياة، فلا عجب أن تصبح جنائزنا أعراسًا!

لا ليست تلك النهاية، لا بد من نهاية أخرى لا نعلمها، لا بد من فرحة لكل من تعذبوا على ظهر الأرض، لا بد من عدل لكل من ظلموا على الأرض، لا بد من جنة لكل من كُووا بنار الأرض.


ساحر الكتب





كيف ستتقبل خوفهم منها وقد كان وجهها جنة أبصارهم؟! كيف تتحمل صدهم عنها، وهي التى كانت تهفو إليها الأفئدة وتتوق الأنفس أن تكون بجوارها؟! عليها تبرير ما لم تقترف، مجني عليها وبالجريمة تعترف، ما أشد أن تُطعن البتول في شرفها، والقديسة فى إيمانها وأخلاقها! أو تكون الزهرة موبقة؟! أو يحملن النحلات في بطونهن المر؟!



علاء أحمد

كاتب روائى وشاعر من مواليد الإسكندرية عام 1985. يعمل مشرفا لنادى الأدب بقصر ثقافة القبارى بالاسكندرية.. صدر له ديوان "لابس وش" عام 2014 ثم رواية "HIV" عام 2015 ورواية "عزلة" عام 2016.

تصميم الغلاف كريم آدم


9 789776 578067

